مجموعة قصصية

انتظار
و قصص أخرى

حسام أبو سعدة

العودة

كان وجهها طافحًا بالنضارة والشباب إلا أن نظرات عينيها النارية أفرغت فى قلبه الرعب وجعلته يرتجف.

استيقظ ليجد نفسه فى فراشه فحمد ربه على أنه مجرد حلم. رن جرس المُنبه قبل أن يعود إلى النوم فقام محاولاً أن ينفض عن نفسه الكسل والخمول. لا بد من السفر إلى «القاهرة» لحضور مؤتمر طبى هام، تمت دعوته بصفته من أكبر أطباء «الأسكندرية».

فى الجراج، ابتسم فى ارتياح عندما رأى سيارته الفاخرة الأنيقة. فى خلال دقائق معدودة أصبح على بداية الطريق الصحراوى، يستمتع بهواء المكيف المنعش و سحر الموسيقى.

بعد بضعة كيلو مترات من بوابة «الأسكندرية» رأى شخصًا ما يقف بجانب الطريق ويشير له بالتوقف. رغم بعد المسافة إلا أنه لا يعرف لماذا شعر أن هذا الشخص ربما يكون السيدة التى رآها فى الحلم. عندما اقترب و توقف تأكد من صدق حدسه، إنها هى.

مدت يدها تصافحه بحرارة كأنهما صديقين حميمين. جلست بجواره بسرعة ثم قالت كأن اللقاء كان مدبرًا: هيا.

سأل: إلى أين؟

فأجابت فى ذهول: إلى «القاهرة».

انطلقت السيارة وهو صامت فى ارتباك، لا يعرف ماذا يقول. شعرت بارتباكه فسألته: ألا تذكرنى؟

نظر إليها متشككًا ثم قال: التقينا بالأمس.

قالت فى استنكار: بالأمس فقط؟ أعرفك منذ عشرين عامًا، منذ أيام «مطروح».

بدأ حياته طبيبًا صغيرًا فى «مطروح». فى هذه الأيام، كان ما يزال يحصل على مصروفه من والده بالرغم من مرور اثنى عشر عامًا على دراسته للطب. فى بلادنا، مشوار الطب طويل وشاق.

قال لاستدراجها فى الحديث محاولاً التذكر: لا بد أنك كنت مريضة عندى.

قالت بصوت يشبه فحيح الأفعى: نعم. لقد أجريت لى سلسلة عمليات جراحية لمدة خمس سنوات.

ثم أكملت فى استهتار: كيف لا تذكرنى؟

أجاب فى استهتار أيضًا: المرضى كثيرون.

قالت فى سخرية: معك حق. هل كل المرضى مثلى؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن الحقيقة تكشفت لى بعد أن عدت إلى التراب. علمت أنك أجريت لى العمليات دون داع أبدًا وعلمت أنك افتتحت عيادة كبيرة أنيقة فى «الأسكندرية» بالمال الذى نهبته من زوجى البدوى الثرى.

اقشعر جسده، سرت البرودة من الأطراف إلى كل أجزاء الجسد. الآن تذكر كل شىء، الآن أصبحت ذاكرته حديدية. التفت إليها فى ذهول و صمت. لم يستطع لى عنقه عنها و الالتفات إلى الطريق الذى استدار فى منحنى خطير. دخلت السيارة إلى الجبل وانقلبت عدة مرات. أصبح ملقيًا على التراب الذى أتى منه وسط بركة الدم وحطام السيارة الفاخرة.

●●●

الأخطبوط

وقف «هانى» يرقب أحد الأفواج السياحية مبهورًا.. الفتيات فى غاية الحسن و الجمال، الفتيان يتفاخرون بعضلاتهم المفتولة وهم يحملون الحقائب إلى بطن الأوتوبيس. لم يلحظ فى عينىّ أى منهم رهبة الغربة بل يقفزون فى مرح ونشاط وكأن الدنيا بأسرها ملكًا لهم...

انطلق الأوتوبيس بالسائحين بينما راح «هانى» يتجول بجوار شاطئ البحر.. الطريق تحت قدميه يلتوى يمينًا ويسارًا مثل ثعبان ضخم، كأن هناك شيطان ماكر يسرق الطريق من خطواته، تعثر أكثر من مرة حتى كاد أن يسقط.. ثم جلس على أحد المقاعد الحجرية خائر القوة وهو يرقب الأفق المعتم برهبة..

لا تبدو فى السماء نجمة واحدة، السحب تكاثفت وتمددت كأنها تتعمد حجب النور عن هذا العالم المتخبط..

تذكر يوم أن كان يجلس هنا فى نفس هذا المكان مع صديق العمر «أيمن»، يخططان لإنشاء مكتبًا صغيرًا فور الانتهاء من دراسة الهندسة، يحلمان بزوجتين وفيتين وأبناء أبرار، ثم يدبان على نفس هذا الطريق بخطوات واثقة وقلبين مفعمين بالأمل،

فالجميع يعلم جيدًا إذا اجتمع هذان الصديقان على شيء فلا بد أن يكون النصر حليفهما...

انسكب فى أذنيه أنين الناى، التفت ليجد شابًا ضريرًا يبث شكواه للأمواج الآتية من العالم البعيد بتنهداته فى نايه الحزين.. أخرج كل ما فى جيبه و وهبه للشاب الضرير بعد أن ثارت فى نفسه كل الأشجان...

لم يستطع فى يوم من الأيام مقاومة سحر الموسيقى. لاتغفو عيناه إلا على رنين أوتار الجيتار فتتطهر روحه من دنس المادة وتنطلق لتسبح بحمد ربها فى العالم الرحب...

لكنه بعد أن فقد صديقه فقد الإحساس بكل شيء، أصبح كمن يعيش نصف ميت نصف حى، حتى الموسيقى لم تعد قادرة على استعادة توازنه فراح يهيم فى الأرض وحيدًا لا يجد ما يفعله.. رأى أمامه ملهى ليليًا فاندفع فى جنون.. راح يشرب ويرقص طوال الليل بينما فى عينيه بريق العناد والتحدى.. سينهى دراسته عما قريب ويقيم مكتبًا هندسيًا ضخمًا بمفرده. سيشيد فى هذا العالم إنجازات فنية رائعة تخلد اسمه عبر التاريخ فيشهد الجميع بعبقريته وموهبته ويندم «أيمن» على جهله وغبائه... لكنه اليوم، بعد أن أنهى دراسته لايعرف من أين يبدأ وكيف؟...

أمـال رأسـه للخلـف ثـم أغمـض عينيـه محـاولاً ترتيـب أفـكاره.. أقـل خطـاء هندسـى قـد يدفـع بـه إلـى غياهـب السـجون... لا بـد أن تكـون البدايـة قويـة و منظمـة بإحـكام شـديد ليحقـق طموحاتـه الكبيـرة.. الشـركات العملاقـة لـن ترحـم أبـدًا المكاتـب الصغيـرة...

اقتحـم أذنيـه وقـع خطـوات متـرددة، أدرك أنهـا روح هائمـة حائرة مثلـه.. التفـت ليجـد شـابًا مكفهـرًا و فـى عينيـه بريـق الغضـب. لـم يعرفـه مـن أول وهلـة ثـم خفـق قلبـه بشـدة عندمـا اكتشـف أنـه صديقه «أيمـن».. راح يرقبـه فـى تشـف و سـخرية وهـو يتذكـر المحـاورات والمشـاجرات التـى حدثـت منـذ ثـلاث سـنوات...

كانـت بدايـة المحـاورات عندمـا خفـت بريـق الـروح الطموحـة الوثابـة فـى نفـس «أيمـن». أهمـل دراسـته و بـدا كأنـه قـد نسـى أحلامهمـا. فـى هـذه الأيـام حـزن «هانـى» كثيـرًا فقـدم لـه شـريط موسـيقى و هـو يقـول:

- أتـرك الكتـب قليـلاً واسـتمتع بالموسـيقى، قـد تعاونـك علـى اسـتعادة نشـاطك.

فقال «أيمن» فى غضب:

- الموسيقى حرام.

اندهش «هانى» وهو يسأل:

- من قال ذلك؟

- جارنا الدكتور «ممدوح».

ضحك «هانى» ساخرًا، ما علاقة طبيب الأسنان بعلوم الدين؟ فثار «أيمن» مدافعًا:

- الدكتور «ممدوح» أستاذًا كبيرًا فى الجامعة وهو ليس إنسانًا منغلقًا كما تتصور، لقد قضى أكثر من عشرين عامًا فى أمريكا.

دامت المناقشات بينهما عدة أشهر. كل منهما يحاول اثبات صحة رأيه بالبرهان القاطع... فى النهاية حطم «أيمن» المسجل فى غضب ثم أمسك بذراع صديقه و هو يقول:

- هيا بنا لنصلى العشاء.

سحب «هانى» ذراعه و هو ينتفض فى عناد:

- لن أصلى. انا إنسان كافر ولا شأن لك بى.

حزن الأهل والأقارب كثيرًا و هم يرون ذبول شجرة الصداقة. لقد اصفرت الأوراق و تساقطت حتى أصبحت مجرد قطعة من الخشب الأصم لاقيمة له. راح البعض يحرق البخور إيمانًا بأنه لا تفسير منطقى لما حدث سوى الحسد أو السحر..

فـى منتصـف العـام التالـى فُصـل «أيمـن» مـن الجامعـة بعـد مشـاجرة كلاميـة عنيفـة مـع أحـد الأسـاتذة. لقـد اتهـم «أيمـن» أسـتاذه بالكفـر و الجهـل لأنـه يخطـئ فـى تشـكيل كلمـات القـرآن...

منـذ أن فُصـل «أيمـن» مـن الجامعـة لـم يلتقيـا إلا اليـوم فقـط. هـب «هانـى» واقفًـا يسـتعد للمواجهـة الحاسـمة بحثًـا عـن الخـلاص مـن حيـاة البـرزخ التـى يحياهـا وحيـدًا. كيـف تكون الموسـيقى حرامًـا بينمـا كان «بـلال» مـؤذن الرسـول يعـزف علـى النـاى؟ كيـف تكـون الموسـيقى حرامًـا بينمـا اسـتقبل الأنصـار الرسـول وهـم ينشـدون علـى الدفـوف «طلـع البـدر علينـا»؟...

اسـتعد «أيمـن» للمواجهـة الحاسـمة بحثًـا عـن الخـلاص مـن حيـاة البـرزخ التـى يحياهـا وحيـدًا. كيـف تكون الموسـيقى حـلالاً وهـى التـى جعلتـك تدمـن الخمـر؟ كيـف تكون الموسـيقى حـلالاً وهـى التـى جعلتـك تلهـث خلـف الراقصـات فـى الملاهـى الليليـة؟

لـم يشـعر أى منهمـا وهـو يسـتعد لمواجهـة صديقـه اللـدود بالأخطبـوط الضخـم الـذى بـدا فـى الأفـق... فـى لمـح البصـر قبـض الأخطبـوط بأحـد أقدامـه الكثيـرة علـى «هانـى» فـراح يصـرخ ويتلـوى طالبًـا النجـدة مـن صديقـه. قبـل أن يفكـر «أيمـن» فـى انقـاذه قبـض الأخطبـوط بقدمـه الأخـرى عليـه. اعتصرهمـا بقـوة. امتصّ دماءهمـا بقسـوة بالغـة ولـم يتركهمـا إلا جثتـين هامدتـين علـى قارعـة الطريـق... وبعـد قليـل تجمعـت الـكلاب الشـاردة تنهـش الصديقـين.

أم «فارس»

وضعت له طعام العشاء فى حجرته ثم اتجهت إلى حجرتها. لم تستطع النوم، كالعادة، ظلت تتقلب فى الفراش. مع آذان الفجر سمعت الباب يُفتح و يُغلق. بعد أن اطمأنت لعودة ابنها «فارس» غطت فى نوم عميق قريرة العين.

هذا هو موعد عودته منذ قيام الثورة. يخرج بعد صلاة العصر و يعود مع آذان الفجر. حاولت منعه من هذا النشاط، السياسيون لا يرحمون أحدًا. لكنها لم تستطع إقناعه، ربما لأنها تحدثه بقلب الأم الملتاعة على ابنها الوحيد لكن عقلها يدرك تمامًا أنه يسير فى الطريق الصحيح.

فى البداية خرج يهتف بسقوط «مبارك» ثم تحول الهتاف إلى سقوط حكم العسكر و أخيرًا خرج يهتف بسقوط حكم «المرشد». سألته لماذا يُغير هتافه؟ فقال لها: لكى ينعم أولادى بالمستقبل. شهقت قائلة: كيف يكون لك أولاد وأنت لم تتزوج بعد؟ فابتسم قائلاً: سأتزوج قريبًا وسيكون لى أولاد. فى هذه اللحظة اختفى «فارس» لمدة أسبوعين و ربما شهرين، لا تتذكر جيدًا. كل ما تذكره أن حياتها أصبحت قاحلة السواد بدونه، البيت أصبح

موحشًا مرعبًا بدون قرة عينها. فى هذه الفترة أُصيبت بمرض الرعاش بالرغم من أنها لم تتجاوز الخمسين من العمر. ربما لا يكون المرض فى الأعصاب فقط بل فى المخ أيضًا. فى هذه الأيام قال لها جارها الطبيب أن الإنسان الذكى هو الذى يعرف كيف يتأقلم مع الحياة.

عاد «فارس». اعتصرته فى حضنها لتروى عطش قلبها الذى كاد أن يتحول إلى صحراء جرداء. طلب منها الالتزام بالنوم مبكرًا حفاظًا على صحتها. استجابت لطلبه لكن قبل أن تسكن الى فراشها تعد له طعام العشاء و لا تستطيع النوم إلا بعد عودته. ما يزعجها أنه أصبح لا يأكل فى البيت أبدًا. فى الصباح تجد طعامه كما هو. تتحدث معه لمدة ساعة أو ساعتين قبل أن يخرج مع صلاة العصر. ثم تذهب لترتيب حجرته فتجدها مرتبة بدقة وعناية. يبدو أنه لاحظ مرضها فأصبح يرتب حجرته ليريحها.

بالأمس سمعت حركات جميلة تؤنس وحدتها من حجرته. فتحت الباب لتجده يجلس مبتسمًا بين طفلتان فى غاية الحسن والجمال. إحداهن فى الثالثة والأخرى فى الخامسة. الرائحة الزكية العطرة تفوح من الطفلتين، سألته عن الطفلتين فقال إنهن ابنتاه. سألته فى دهشة: متى تزوجت؟ فأجاب بأن هذا لا يهم. المهم أصبح له طفلتين ملائكيتان.

فى الصباح اندهشت جارتها عندما أخبرتها بزواج «فارس». طلبت منها أن تأتى أثناء الليل لتبيت معها. لكنها رفضت تمامًا، كيف تترك «فارس» وطفلتيه الملائكيتين. لمحت فى عينىّ جارتها نظرات غامضة مريبة.

ذهبت إلى «فارس» لتشكو له موقف جارتها فقال لها:

- لا تشغلى بالك بالناس. إيمانهم ضعيف. لا يعلمون أن أمثالى من الشهداء لا يموتون.

●●●

المهندس

انتهت صلاة العشاء. انصرف المصلون الواحد تلو الآخر ثم هب الحاج سمير متثاقلاً يطفئ الأنوار ويغلق باب المسجد. ما أن استدار حتى لمحه.

كان يسير على الجانب الآخر من الطريق متجهًا إليه بخطوات متمهلة متربصة. الشارع خاليًا موحشًا بعيدًا عن ضجيج السوق الذى فى الشارع الرئيسى، الأشجار الضخمة على جانبى الطريق المعتم تبعث فى النفس الرهبة. عندما اقترب منه و تأكد أنه نفس هذا الشاب الوسيم ارتجف.

●●●

بدأ هذا الشاب يتردد على المسجد منذ فترة قصيرة، منذ بضعة أشهر تقريبًا. يجلس فى الركن القريب من الباب وحيدًا هادئًا واثقًا من نفسه. يرقب الحاج سمير بنظرات ثاقبة، رغم حداثة سنه إلا أنه مهاب الطلعة، رغم وداعته إلا أن نظراته تنفذ إلى أعمق الأعماق.

يلمحه أثناء انتظار إقامة الصلاة لكنه لم يصل أبدًا بجواره أو قريبًا منه. يبدو أنه يصلى فى الصف الأخير لأنه يختفى تمامًا فور الانتهاء من الصلاة.

سـأل المترددين علـى المسـجد عـن هـذا الشـاب الغريـب لكـن يبدو أنـه لـم يلحظـه أى منهـم. ثـم بـدأ يشـكو لهـم مـن قلقـه. أناقتـه غامضـة، صمتـه مريـب، فحـذره أحدهـم قائـلاً:

- قد يكون من أمن الدولة.

ابتسم الحاج «سمير» بفخر قائلاً:

- ربما.

فعاد الصديق يقول و هو يتنهد فى أسى:

- أنـت تدعـو النـاس للصـلاة و تعينهـم علـى حفـظ القـرآن وتفسـيره وبلادنـا تحـارب المصلحـين و تسـاند المفسـدين.

جلجلت ضحكات الحاج «سمير» قائلاً:

حتى لو كان أمن دولة، أنا لا أخشى أحدًا إلا اللّه.

●●●

فى هـذه الليلـة وقـف الشـاب علـى بعـد خطـوات وعلـى شـفتيه ابتسـامة الخجـل والتـردد ثـم اقتـرب و هـو يسـأل فـى أدب جـم:

- أبحث عن ميكانيكى جيد.

ضحك الحاج «سمير» من المفاجأة ثم ردد فى سخرية:

- ميكانيكى جيد.

قال الشاب وقد اتسعت ابتسامته:

- أقصد ميكانيكى لديه ضمير حى. أصلحت سيارتى أكثر من مرة والعطل ما زال كما هو.

امتعض الحاج «سمير» قائلاً فى حسرة:

- يا بنى، لقد مات الضمير فى نفوس الناس، الكل يعمل فى عجله و استهتار و لا يهمه شيئًا سوى المكسب المادى فقط.

قال الشاب وفى عينيه بريق الدهشة:

- معك حق يا شيخنا. الكل يعمل فى استهتار.

أشم الحاج «سمير» رائحة المسك الطاهرة، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- نعم،أصبح الناس يعملون كل شىء فى استهتار غريب. حتى الصلاة يقيمونها بلا ضمير.. بعضهم يتعجلنى عندما أكون إمامًا عليهم. تعجلهم لى يفسد على صلاتى و لذلك أعيد الصلاة عندما أعود إلى بيتى، أصلى الركعة الواحدة بجزء من القرآن.

بدا الإعجاب فى عينيى الشاب فأكمل الحاج «سمير»:

- أريد الاستمتاع بصلاتى.

- معك حق.

شعر الحاج «سمير» أنه كسب شابًا مؤمنًا يجاهد ويناضل فى سبيل الله ونشر قيم الإسلام النبيلة، خشى فقدان هذا الشاب بالحديث الطويل، فقال فى أدب:

- على كل حال يوجد ميكانيكى فى نهاية هذا الشارع، حاول يا بنى المواظبة على صلاتك، حاول الاقتراب منا.

ابتسم الشاب و في عينيه بريق غامض ثم قال و هو ينصرف:

- أعدك أننى لن أبتعد عنك أبدًا، حتى بعد الموت.

خفق قلبه بشدة لذكر كلمة الموت وراح يرقب الشاب وهو يبتعد فى قلق. لا يعرف ماذا يفعل و أين يذهب.

أُحيل إلى المعاش منذ سبعة سنوات. توفيت زوجته منذ ثلاثة أعوام. تزوج الأبناء وأصبح يعيش وحيدًا. شقته ذات الحجرات الثلاث التى كانت ضيقة أصبحت الآن مترامية الأطراف. يشعر بحركات مريبة فى الشقة. تحركات مخيفة غامضة. أصبح نومه قلقًا متقطعًا. تناول العقاقير المهدئة والمنومة دون جدوى. يخشى الموت وحيدًا دون أن يشعر به أحد. تذكر دعوة الأصدقاء له ليقضى معهم الأمسيات فى المقهى. برقت عيناه ببريق خاطف وهو يقول فى نفسه: و لم لا؟!...

●●●

فـى المقهـى اسـتقبله الأصدقـاء بحفـاوة بالغـة، شـعر بالأمـان المفقـود بينهـم. اشـتم رائحـة بعـض المأكولات الخفيفـة الشـهية، طلـب بعـض السندوتشـات بعـد أن قـرر عـدم العـودة إلـى البيـت إلا بعـد أن يكـون هـده التعـب وغلبـه النعـاس.

فـى انتظـار الطعـام انتبـه إلـى الصـورة التـى فـى الجريـدة الملقـاة باهمـال علـى المنضـدة. راح يقـرأ بإهمـال بالـغ وفـى عينيـه نظـرات الدهشـة و الحسـرة، ثـم التفـت إلـى أصدقائـه قائـلاً:

– إنـه رئيـس مجلـس إدارة الشـركة التـى كنـت أعمـل بهـا وهـو صاحـب الشـركة.. يدفـع الرشـاوى مـن أجل الحصـول علـى المناقصـات ثـم يكرمونـه بشـهادات التقديـر.

ابتسم الأصدقاء فى لا مبالاة ثم قال أحدهم:

– كلهم يفعلون ذلك.

اعتدل الحاج «سمير» فى جلسته و هو يقول:

– كان يمنـح العـلاوات والترقيـات للمنافقـين، يحيـط نفسـه باللصـوص ليكونـوا حولـه في المكاتـب المكيفـة بينمـا ظللـت أنـا أعمـل فـى المواقـع تحـت لهيـب الشـمس وفـى زمهريـر الشـتاء لمـدة خمسـة وثلاثـين عامًـا.

ثم رفع رأسه قائلاً بفخر:

- أنا الذى رصفت وأنشأت معظم الطرق فى هذا البلد دون الحصول على كلمة شكر، حتى مكافأة نهاية الخدمة اضمحلت إلى النصف.

قال أحد الأصدقاء معاتبًا:

- لأنك فضحته. هل تنسى أنك سببته أمام الجميع؟

نفخ الحاج «سمير» صدره قائلاً:

- نعم، حدث ذلك، لأنه شارب للخمر تارك للصلاة. ورسولنا الكريم يقول: من رأى منكم منكرًا فليغيره...» وأنا لا أبغى أبدًا أى مكسب دنيوى، أجرى على الله ولا أريد غير ذلك.

وضع النادل الأطباق على المنضدة، انهمك الحاج «سمير» فى الأكل بنهم وهو يقول فى نفسه: الحياة جميلة بين أصدقاء طيبين مخلصين. فى هذه اللحظة شعر بنظرات تخترقه، التفت ليكتشف نفس الشاب يجلس فى أحد أركان المقهى، ترك الطعام وراح يرقبه فى توجس. كان الشاب يجلس مع مجموعة كبيرة من الأصدقاء، وربما أقاربه، يتهامسون وهم يلتفتون إليه من حين لآخر، على شفاههم ابتسامات ساخرة، فى عيونهم مكر و خبث.. قال الحاج «سمير» لأصدقائه:

- نفس الشاب الذى حدثتكم عنه يجلس فى الركن هناك.. نظراته تقلقنى.. تطاردنى أثناء النوم..

التفت الأصدقاء إلى الركن الذى أشار إليه فلم يجدوا أحدًا. التفت الحاج «سمير» ليشير إليه فلم يجد أى منهم. فقال:

- انصرفوا بعد أن لاحظوا أننى رأيتهم.

قال أحد الأصدقاء محذرًا:

- ربما يكونوا رجال رئيس مجلس الإدارة. أعلم أنه يطمح إلى منصب كبير فى الحكومة و بلا شك يخشى أن تثير حوله الشبهات.

قال الحاج «سمير» فى قلق:

ربما.

●●●

أمام باب منزله اقشعر بدنه عندما اشتم رائحة المسك. رغم العتمة لمح بريق عينيه نافذًا ثاقبًا، سأل فى هلع:

- ماذا تريد؟

أشار إلى الباب و هو يقول بهدوء:

- أريد التحدث معك. افتح الباب من فضلك.

فى الداخل، جال الحاج «سمير» ببصره يتأمل المكان فى حذر وترقب. رغم أنه منزله إلا أنه يشعر بالمكان غريب عنه تمامًا كأنه يراه لأول مرة. سرت البرودة فى أطرافه بينما جلس الشاب على الأريكة القديمة فى الصالة. لاحظ الحاج «سمير» أن الصورة المعلقة على الجدار قد بُدلت، كانت صورته و أصبحت الآن صورة مزلقان قطار يقع أسفل طريق هابط مباشرة. التفت إلى صورة زوجته فوجد جثث الأطفال تتناثر حول أوتوبيس مدارس مقلوب بجوار مطب هوائى.

أدار الحاج «سمير» الراديو الذى كان مضبوطًا دائمًا على إذاعة القرآن الكريم. شعر بالبرودة تزحف من الأطراف إلى داخل الجسد، تحاصره، تهده، ألقى بكل ثقله على المقعد وهو يسأل فى ذهول:

- ما هذه الصور؟

أجاب الشاب مبتسمًا فى هدوء:

- هذا عملك.. و أنا مندوب عن ضحايا عملك.

جحظت عينا الحاج «سمير» ثم قال مدافعًا عن نفسه:

- لم أكن إلا مهندسًا صغيرًا، لم أحصل على ترقية أبدًا طوال حياتى.

قال الشاب و فى عينيه نظرات التحدى:

- أعلم ذلك، لأنك ثرت فى وجه رئيسك.

استجمع الحاج «سمير» شجاعته قائلاً:

- الساكت عن الحق شيطان أخرس...

قال الشاب فى هدوء:

- بما أنك تملك الشجاعة الكافية لتثور فى وجهه من أجل شرب الخمر، كان يجب أن تثور أيضًا من أجل عيوب الطريق التى خطفت أرواح الكثير من الأبرياء.

صمت الحاج «سمير» ثم أكمل الشاب:

- هل فهمت الآن لماذا قال رسولنا الكريم: «اللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا»...

وهبط الصمت ثقيلاً مريبًا...

●●●

المياه العكرة

دخل الرجل العجوز إلى المقهى. ألقى علىّ بنظرة خاطفة دون أن يلقى التحية. اتجه إلى أحد الأركان المنزوية وجلس بمفرده. أتى له النادل بالقهوة دون أن يطلب منه ذلك.

بدأ يلفت نظرى منذ أن تسلمت إدارة مقهى والدى. لكن يبدو، على ما أذكر، أنه أحد رواد المقهى منذ فترة طويلة. كنت ألمحه عندما آتى لزيارة والدى من حين لآخر.

يجلس فى أحد الأركان المنزوية البعيدة. يجلس وحيدًا شاردًا يرتشف القهوة. لم أشهده أبدًا و هو يتحدث مع أحد إلا نادرًا. لا يشاهد التليفزيون أو يرقب الطريق مثل بقية الزبائن.

النادل يقول أنه لا يشرب إلا فنجانين من القهوة فقط. وبالرغم من ذلك، يبدو أنه لا يتذوقها جيدًا. أحيانًا يخطئ النادل ويضع له قهوة سكر زيادة بدلاً من المضبوط. وبالرغم من ذلك يرتشفها دون أى اعتراض. يبدو أنه يعيش فى عالم آخر غير عالمنا.

بعض رواد المقهى يعتقدون أنه شيخ مبروك. يؤكدون على صحة حديثهم بأنه لا يأتى أبدًا إلا بعد صلاة العشاء. أولياء الله

الصالحين يجوبون المساجد طوال النهار. يبدو أنهم على حق. السماحة واضحة فى عينيه، لحيته البيضاء الكثيفة تؤكد أنه من أولياء الله. هؤلاء يعيشون فى عالم آخر من الصفاء و الطهارة والنقاء بعيدًا عن دنس الماديات.

فى أحد الأيام، ضبطه يتحدث إلى نفسه بهدوء. لاحظ أننى أرقبه. ابتسم فى خجل ثم طأطأ رأسه. من المؤكد أنه بدأ يشعر بوجودى منذ هذا اليوم، و بالرغم من ذلك، ظل يدخل المقهى ويخرج منه دون أن يلقى على بالتحية أبدًا. لكنه يرمينى بنظرة ودودة من حين لآخر.

فى ذات يوم، سمعنا صوت احتكاك عجلات إحدى السيارات على الطريق. فى هذه اللحظة، انتفض العجوز، جحظت عيناه فى رعب، وقف شعر رأسه الأبيض الخفيف، بدا كأنه على وشك الموت. خرج وسط الناس إلى الطريق ليروا ما حدث.

كانت هناك سيارة يقودها شاب صغير على وشك أن تدهس طفلة صغيرة تعبر الطريق. لقد تمكن الشاب من إيقاف السيارة فى الوقت المناسب. التف الناس حول قائد السيارة الصغير يلومونه. وفجأة صرخ أحد الرجال: إنه سكران رائحة الخمر واضحة.

فى هذه اللحظة برقت عينا العجوز. رفع هامته فى غضب حتى بدا مثل العملاق بين الرجال ثم راح يضرب مقدمة السيارة بكلتا يديه بقوة مجنونة. لا أحد يعلم من أين هبطت هذه القوة الجبارة على رجل عجوز فى مثل هذا السن. راح يصرخ: سفاح، مجنون، متهور.

حاول الناس تهدئة العجوز. الطفلة سليمة، لا داعى لكل ذلك. لكن العجوز أصر على ألا يترك الشاب الثمل إلا فى قسم الشرطة بعد أن يحرر له محضرًا بذلك.

ارتجف الشاب. التف الناس حول العجوز. السجن هو عقوبة السكر أثناء القيادة. لكن العجوز أصر على رأيه ولم يترك الشاب إلا فى قسم الشرطة بعد أن حرر له محضرًا.

بعد هذا الموقف أدركت أن هذا العجوز ما هو إلا ضابط شرطة متقاعد. و لا شك فى أنه كان غليظًا فظًا فى تأدية واجبه.

فى اليوم التالى، عندما أتى العجوز، راح الناس يرمونه بنظرات الغضب، يتهمونه بالقسوة والغلظة. لا أحد يستطيع إنكار حماقة وتهور الشاب الصغير. لكن لم يكن هناك داعيًا لسجنه بعد أن تأكدوا من سلامة الطفلة.

راح العجوز يجول ببصره بينهم فى قلق و فجأة انفجر صارخًا: يبدو أن هذا الشاب المتهور على حق. الخمور والمخدرات أصبحت الآن أرخص من الخبز. لقد أصبحت هذه الأشياء مدعمة من الحكومة و متوافرة فى كل مكان.

هنا ضحك أحد زبائن المقهى و قال: أعتقد أن الحكومة تحصل منا الضرائب لتدعيم تجارة المخدرات والخمور.

انفجر جميع الجالسين فى الضحك وراحوا يسخرون وشعرت فى هذه الليلة أنهم جميعًا سكارى أو مخدرون.

بعد شهر من هذه الحادثة أتى إلى أحد أصدقائى القدامى من أيام الدراسة. جلس بجانبى على المكتب ثم أخرج من جيبه لفافة صغيرة من الورق السوليفان. إنها قطعة مخدر. رفضتها طبعًا لأننى لا أحب مثل هذه الأشياء. لكنى شعرت بنظرات تخترقنى. التفت لأجد العجوز يرقبنى بنظرات ثاقبة مرعبة.

بعد انصراف صديقى أتى العجوز و جلس بجوارى ثم قال مهددًا: إياك و المخدرات.

أكدت له أننى أنفر من هذه الأشياء ثم فاجأنى بقوله: هل تعلم أننى لا أستطيع النوم قبل ابتلاع قرصين من المخدر.

نظرت إليه فى دهشة. لم أجد شيئًا أقوله. أكمل: ولا أستطيع اليقظة إلا بعد فنجانين من القهوة على الريق.

أصابتنى الدهشة بالصمت. أكمل العجوز:

– لقد بدأت هذا المشوار منذ أن كنت فى مثل سنك. كنت سائقًا على سيارة نقل ثقيل. ولأننى كنت عنيفًا بطبعى أصبح صاحب السيارة يسند إلى السفريات الطويلة الشاقة. هذه الرحلات فى قلب الصحراء، فى عتمة الليل وزمهرير الشتاء ولهيب الصيف، تحتاج إلى قلب جسور. ولأننى حاد الطباع، ولأن القيادة تحتاج إلى أعصاب هادئة، بدأت فى تناول المخدرات. مر يوم وراء يوم وأصبحت لا أستطيع التحكم فى السيارة إلا مخدرًا. كنت أشعر بنشوة عارمة و ثقة لا حدود لها. كنت أشعر بنفسى عملاقًا على الطريق لا يخشى شيئًا مهما كان.

كان أخى يعمل فى مصنع زيت عباد الشمس. ثم أغلق المصنع لعدم وجود الزهرة. جلست مع أخى وبعض زملائه. علمت منهم أن أحد المسؤولين الكبار قرر استيراد الزيت بدلاً من تصنيعه وزراعة عباد الشمس. لهذا تم إغلاق المصنع وارتفع ثمن الزيت. ولهذا تم تشريد أكثر من ألف عامل.

كان أخى متزوجًا و له ثلاثة أبناء. احتياجاتهم كثيرة ولا يوجد أى مصدر للرزق. عرضت عليه أن يعمل تباعًا معى. وافق على الفور.

أصبح أخى هو رفيقى على الطريق. استأنست به من وحشة الليل وغموض الصحراء. سعد أخى كثيرًا بهذا العمل، الربح وفير والسفر متعة أكبر. لكى أعاون أخى على تحمل مشاق السفر الطويل أعطيته قطعة من المخدر. فى البداية لم يشعر بأى نشوة. لكن يوم وراء يوم اكتشف أن المخدرات هى الحل الأمثل لتحمل مشاق السفر.

كنا نستريح فى بعض المقاهى الصغيرة على الطريق. فى هذه المقاهى يقدمون لنا وجبات دسمة ولا مانع من تناول المخدرات والنوم قليلاً قبل العودة إلى الطريق.

وفى ذات يوم، بينما كنا فى إحدى الاستراحات، ذهب أخى لينام أسفل السيارة بعيدًا عن الضوء. بينما أكملت أنا الوجبة الدسمة و بعدها كوب الشاى الثقيل مع المخدر. عندما شعرت أننى فى حالة جيدة تسمح لى بالقيادة لمدة عشر ساعات على الأقل اتجهت إلى السيارة. ما أن أدرت المحرك وتحركت بالسيارة حتى سمعت صرخات أخى. دهسته بعجلات السيارة العملاقة.. وما زلت حتى اليوم، أحلم كل ليلة ببركة الدم حول العجلات العملاقة المزدوجة.

●●●

انتقام

العينان جاحظتان فى ذهول. يدها على فمها لتكتم الصرخة.

استيقظ مفزوعًا. هذه النظرات تطارده من حين لآخر منذ أربعة وعشرين عامًا تقريبًا، منذ أن انفصل عنها. لم يشغل نفسه بالسؤال الحائر القاسى فى عينيها، تتساءل عن ذنبها. يعلم جيدًا أنه لا ذنب لها لكنه يريد أن يكون أبًا. أليس من حقه أن يكون له ولد يحمل اسمه على سطح الأرض؟ الإنجاب لم يحدث لمدة ثلاث سنوات. الأطباء يؤكدون عدم وجود أى موانع لدى أى منهما. أخيرًا أخبره أحدهم: هناك حالات يفشل الطب فى الوصول إلى تفسيرها.

هذه الكلمة أثارته كثيرًا. إنه يكره الفشل. لذلك انفصل عنها وتزوج بأخرى بعد بضعة أشهر. فى ليلة الزفاف طاردته هذه النظرات النارية كأنها تتوعده بالانتقام. الخوف جعله يفشل فى الدخول بزوجته. لكنه يكره الخضوع والاستسلام. أدار رأسه للماضى ونسيه تمامًا، لا يجب الاهتمام إلا بالمستقبل فقط.

حملت زوجته الجديدة وأصبح يتيه فخرًا بنفسه، يسير على الأرض كأنه يخرق الجبال طولاً. انهمك فى عمله بكل جد ونشاط، وبدأ مكتبه فى المقاولات البحرية أول خطوات النجاح.

عما قريب سيأتى الابن، سيعلمه الهندسة البحرية ليكون السند له فى بناء شركة عملاقة، سيفخر به أمام الجميع. لكن زوجته وضعتها أنثى.

داهمه الحزن. فى هذه الأيام أصبحت نظراتها تطارده لعدة ليال. نظرات ساخرة متشفية. قالت له: ليست البنت مثل الولد. الولد هو السند و هو الذى يُخلد الاسم.

بعد إنجاب البنت الثانية أصبحت نظراتها أكثر شراسة، تبتسم أحيانًا فتبدو أنيابها حادة مخيفة. أصبح على يقين أنها تنتوى الغدر به. بحث عنها، لكنها اختفت فى زحام المدينة. أصبح شديد القلق على بنتيه. عين لهما الحراس، لقد نمت شركته وأصبح لديه الكثير من العمال والكثير من المال. حرصه الشديد لفت أنظار زوجته الجديدة وأصدقائه، نصحوه بالتوجه إلى الطبيب النفسى الذى وصف له العقاقير المُهدئة كما نصحه بأن الأسف والندم لا يجديان أبدًا.

بالرغم من الهدوء النسبى تحت تأثير العقاقير إلا أن قلقه ينمو مع نمو بنتيه. بعد أن فرغ من بناء القصر الضخم على أطراف المدينة وقف برهة أمام البوابة مزهوًا بنفسه يتأمل اللوحة الرخامية الأنيقة التى تحمل اسمه. فى هذه اللحظة لمحها تجلس داخل الحديقة. دُهش متى دخلت و كيف؟ تقدم نحوها فى غضب

فقالت بسرعة: أزواج بناتك سيمحون هذا الاسم بعد وفاتك ليضعوا أسماءهم، وربما يبيعون القصر طمعًا فى المال. أجابها فى استسلام و حنق:

- إنه قدرى.

قالت متشفية:

- الآن علمت أنه القدر.

استشاط غضبًا من سخريتها القاسية، صرخ فى وجهها يطردها. فى هذه اللحظة أتت إحدى بنتيه تسأله فى ذهول:

- بابا! أتتحدث مع نفسك.

احتضنها برفق. مجرد خيالات. لا يستسلم للأوهام إلا الإنسان الضعيف. قالت البنت وهى تربت على ظهره:

- سأعد لك عصير الليمون.

تأكد من صدق المقولة الشهيرة « لا شىء يعوضك عن حب أمك إلا حب ابنتك». ابتسم فى ارتياح. أزواج بناتى سيصبحون أبناء لى ويتعاونون معى فى إدارة الشركة التى أصبح لها عدة فروع حول العالم.

اليوم، أصبحت ابنته الكبرى فى الحادية والعشرين من عمرها. تقدم لخطبتها شاب ثرى. أطلت عليه بنظراتها النارية من خلال نافذة المكتب الأنيق. قالت بصوت يشبه فحيح الأفعى:

-زوج ابنتك طبيب، والده ثرى، سيقيم له عيادة خاصة وربما يضع اسمه على قصرك بعد تحويله إلى مستشفى. شركتك ستزول، اسمك سيزول.

ارتجف رعبًا بعد أن أيقن أنها أجلت الإنتقام إلى أن تكبر ابنتاه ليكون أشد و أقسى.

فى الطريق إلى الفندق لترتيب مراسم الخطوبة الفاخرة رأى جنازة. سيارة الإسعاف تسير ببطء والناس خلفها تسير فى حزن. اخترقته نظراتها. هذه المرة هو واثق تمامًا أنه واقع وليس خيالات أبدًا. ربما يكون المتوفى هو والدها، يعلم من الأصدقاء أنها لم تتزوج بعده لأنها لم تحب أحد غيره. تقدم نحوها مشفقًا عليها. رمته بنفس النظرة النارية الذاهلة. سألها فى هدوء:

- هل هو والدك؟

قالت بصوت مرتعش لا يخلو من نبرة الانتقام:

- إنه ابنك.

هتف فى هلع:

- ابنى!

- نعم، ابنك. أرسلته إليك بعد أن أتم دراسة الهندسة البحرية. فى الطريق سقط ميتًا دون مرض ودون أى مقدمات.

●●●

«حم – إيونو»

«رع» حجب الشمس خلف السحب الكثيفة الداكنة فتساقطت الأمطار على مدينة القاهرة منذ الصباح. رغم أن المطر رزازًا خفيفًا إلا أن كل الحفر والمطبات فى الشوارع امتلأت بالمياه وتحولت إلى برك ومستنقعات.

كان المهندس «رجب» داخل سيارة أجرة متوجهًا لمقابلة المهندس الشهير «منصور». يتحسس الورقة التى فى جيبه من حين لآخر ليطمئن عليها. فى هذه الورقة كل طموحاته وأحلامه. فى هذه الورقة المستقبل السعيد الذى طالما حلم به.

توقفت السيارات فى الطريق على بعد كيلومتر من مطلع الجسر. السيارة المجاورة بقيادة رجل عجوز بصحبة طفل. راح الجد يحكى لحفيده كيف كانت القاهرة رحبة جميلة نظيفة منذ خمسين عامًا بينما الحفيد يستمع و هو يبتسم فى سخرية، لا يصدق حديث جده.

ظهرت عربة إسعاف من أحد الطرق الجانبية، وقفت تعوى مثل وحش جريح، لا تجد لنفسها طريقًا. هبط من إحدى السيارات شاب أسمر طويل حاول تحريك السيارات بضعة

سنتيمترات للأمام أو الخلف، اليمين أو اليسار. تجاوب معه كل قائدى السيارات ونفذوا أوامره بدقة. فى النهاية نجحوا فى أن يفتحوا ممرًا ضيقًا لعبور عربة الإسعاف. التفت سائق السيارة الأجرة إلى المهندس «رجب» و قال:

- شعب طيب أصيل. حرام أن يعيش فى مثل هذه الظروف.

ابتسم المهندس «رجب» فى اقتضاب قائلاً:

- معك حق.

تقدمت السيارات سنتيمترًا وراء سنتيمتر حتى وصلت السيارة الأجرة إلى مطلع الجسر. المياه تراكمت أسفل الجسر و شكلت بحيرة كبيرة. تقدمت السيارة الأجرة بحرص شديد خوفًا من وجود مطبات تحت المياه. تزمر السائق و قال ثائرًا:

- معقول أن تكون القاهرة بهذا الحال و نحن فى القرن الواحد و العشرين.

لم يقل المهندس «رجب» شيئًا لكنه راح يتأكد من وجود الورقة فى جيبه. إنه لم يصل إلى هذا المنصب إلا بعد أن ذاق مرارة الذل و الهوان فى نفاق مديره، بعد أن رسم خطط كثيرة من أجل إبعاد المنافسين. هذه هى الحياة و لا بد من ذلك، خاصة أن الراتب لا يكفى ثمن الخبز الحاف.

عند منزل الجسر كانت هناك بحيرة أخرى. سقطت السيارة في أحد المطبات وارتجفت بعنف، عجزت عن الحركة بعد أن تحطمت بعض الأجزاء الميكانيكية.

نظر المهندس «رجب» إلى ساعته فى عصبية ثم هبط من السيارة و هو يسب ويلعن فى هذا البلد الذى لا يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ولا يوجد أى أمل فى إصلاحه.

استقل سيارة أخرى، خرجت السيارة من الزحام بشق الأنفس ثم دلفت إلى طريق جانبى ضيق ومنه دلفت إلى مدق ترابى ثم توقفت أمام باب حديدى ضخم مزين بنقوش فرعونية رائعة.

دخل القصر الكبير، قاده الخادم إلى شرفة رحبة تطل على حدائق غناء. النبات يستمتع بقطرات المياه الصافية. فى نهاية المشهد بدت الأهرامات الثلاثة شامخة منذ آلاف السنين.

دخل المهندس الشهير «منصور»، هب المهندس «رجب» واقفًا فى أدب. أشار المهندس الكبير بالجلوس ثم قال:

أنت شاب ذكى، أعتقد أنك ستصل قريبًا إلى مركز مرموق.

شكرًا.

أنت المشرف على اللجنة المكلفة باستلام الطريق الذى أقامته شركتى، أليس كذلك؟

ارتبك المهندس «رجب» و هو يخرج الورقة من جيبه و يقدمها إلى المهندس «منصور». قرأ المهندس الكبير الورقة فى عجالة ثم ضحك قائلاً:

- اثنا عشر خطأً فى الطريق الذى أقامته شركتى؟ هل هذا معقول؟

هب المهندس «منصور» واقفًا واختفى ثم عاد حاملاً حقيبة دبلوماسية وضعها أمام المهندس الشاب و فتحها. كانت الحقيبة ممتلئة بالأموال. ابتسم المهندس «رجب» و هو يغلق الحقيبة بيد مرتجفة ثم احتضنها. جلجلت ضحكة المهندس «منصور» و قال:

- كنت واثقًا من ذكائك. بعد أن توقع على استلام الطريق سيكون لك هدية مماثلة.

تمتم المهندس الشاب بالشكر. ضغط المهندس الكبير على زر بجانب مقعده فأتى الخادم يجر عربة صغيرة عليها زجاجات الخمر. قال المهندس الكبير و هو يقدم الكأس للمهندس الشاب:

- والآن، نشرب نخب جدنا العظيم «حم – إيونو».

بدت علامات الدهشة على وجه المهندس الشاب وهو يتسأل:

- من هو جدنا العظيم «حم – إيونو».

- إنه المهندس العظيم الذى شيد الهرم.

فى هذه اللحظة برقت السماء عدة مرات متتالية ثم هدر الرعد بعنف ثم انهمرت الأمطار بغزارة. كان جدنا العظيم ثائرًا فى السماء وهو يصرخ قائلاً:

لست جدكم أنا برىء منكم.

●●●

الجثة ترتج

اندهش موظف الاستقبال عندما رأى الدكتور «فؤاد» يصعد إلى حجرته بهدوء دون أن ينطق بأية كلمة.. لقد اعتاد أن يسأله كل يوم، عدة مرات نفس السؤال: هل سأل عنى أحد؟... وتكون الإجابة دائمًا بالنفى...

فى الصباح بعد أن يسأله السؤال المعتاد يذهب إلى المطعم. بعد الإفطار يُخرج كتيبات وأوراق كثيرة من حقيبته، يقرأ بحرص شديد، يضع خطوطًا تحت السطور، يدون بعض الملاحظات بصبر لا ينفد، ثم يلملم أوراقه و يذهب..

لا يعود إلا قبيل غروب الشمس، يعود منهكًا، العرق يتفصد منه بغزارة لكن بريق الأمل فى عينيه لا يخبو أبدًا. خطواته هادئة واثقة كأنه يعلم طريقه جيدًا.

فى المساء يأتى إليه صديقاه. يبدو بينهما طافحًا بالصحة والعافية بينما العجز يكاد يشل حركة صديقيه.. يحاول معهما استعادة ذكريات المراهقة و الشباب بيد أن صديقيه لا يملان الشكوى. أحدهما يشكو من ابنه الذى أدمن الخمور واللهاث خلف الراقصات فى الملاهى الليلية بينما الصديق الثانى يشكو من ابنه

الـذى فُصـل مـن الجامعـة بسـبب اشـتراكه فـى أحـد المظاهـرات.. يحـاول الدكتـور «فـؤاد» البحـث عـن حـل لمشـاكل أبنائهمـا لكنهمـا يغلقـان فـى وجهـه كل الأبـواب، يسـخران مـن أرائـه السـاذجة ثـم ينهمكان فى هجوم عنيف حاد على هذا الجيل الناشىء الضعيف الهزيـل، جيـل يتلهـف كل أنـواع المتعـة والتـرف و يتهـرب مـن كل الواجبـات والمسـؤوليات...

ينصـرف صديقيـه فـى السـاعات الأولـى مـن الليـل وهـو يرقبهمـا بابتسـامة الدهشـة. مـا كل هـذا الضعـف والاستسـلام؟!.. مـا كل هـذا اليـأس والإحبـاط؟!.. هـل مـن المعقـول أن يكـون هنـاك مشـكلة بـلا حـل؟!.. مستحيل...

بعـد توديـع صديقـاه يتجـه إلـى موظـف الإسـتقبال و يسـأل نفـس السـؤال وتكـون الإجابـة دائمًـا بالنفـى. وفـى ذات يـوم سـأله الموظـف بخبـث:

-هل تنتظر زيارة من الحب القديم؟

جلجلـت ضحكاتـه و هـو يربـت علـى كتـف الموظـف الشـاب بحنـان أبـوى صـاف ثـم قـال:

- يـا بنـى، أم الأولاد المصريـة التـى تقيـم معـى هنـاك هـى الحـب الأول و الأخيـر.

كانت ضحكاته الصافية تبعث الشعور بالثقة والأمل فى نفس كل من حوله بيد أن الابتسامة بدأت تخفت شيئًا فشيئًا إلى أن اختفت، اليوم، تمامًا ليحل محلها نظرات شاردة ذاهلة.. راح يصعد إلى حجرته فى صمت مطلق.. ألقى نظرة بائسة على بعض كتبه، راجع بعض الملاحظات التى دونها من قبل.. لا بد من كتابة التقرير الآن.. لكن لا يعرف ماذا يكتب؟...

أشعل سيجارة محاولاً تركيز أفكاره لعله يفلح فى استنتاج شيئًا.. التوت أمعاؤه بشدة و عنف.. لقد أشعل اليوم – على عكس عادته – أكثر من خمس علب سجائر دون أن يأكل شيء.. أمضى يومه فى صراع عنيف مع عقارب الساعة التى تجرى بسرعة مجنونة.. فى النهاية أصابه الدوار و عجز عن التركيز..

أدار المسجل على موسيقى هادئة وراح يدندن محاولاً الهدوء. لابد من تماسك الأعصاب حتى لا يفقد منصبه ومكانته الرفيعة... تذكر يوم الرحيل الأول... لقد هاجر من هنا منذ ثلاثين عامًا، هاجر مهندسًا زراعيًا صغيرًا، غامر بحياته وهو يلقى بنفسه فى غياهب المجهول و دهاليز الغربة الباردة بحثًا عن العلم والمعرفة، طامعًا فى التكنولوجيا الحديثة... بعد كفاح طويل ودراسات كثيرة مستفيضة استطاع الوصول إلى درجة خبير فى وزارة الزراعة هناك. يدفعون له أموالاً طائلة طمعًا فى خبراته.

ولا شك أنهم يجنون ثروات باهظة من هذه الخبرات... فى ذات يوم، أدركوا هناك أهمية محصول الخرشوف. بعد دراسات مكثفة اكتشفوا أن الخرشوف المصرى من أجود وأهم الأنواع...

فى هذه اللحظة شعر بالفخر والاعتزاز.. اقشعر بدنه حبًا وهيامًا وهم يذكرون اسم بلاده.. بينما لمح فى عيون المنافسين نظرات الحقد و الحسد، وربما ابتسامات السخرية والاستخفاف.. بعد سلسلة اجتماعات ومناقشات قرروا إرساله إلى مصر فى مهمة رسمية لدراسة سُبل التعاون بين البلدين فى هذا المحصول الهام.. فعاد إلى الوطن يرتجف بشدة وحنين جارف إلى الأصل.. إلى المنبت...

فى بادئ الأمر، اتجه إلى أساتذة كليات الزراعة، تحمسوا لأفكاره وأرائه لكنهم عاجزون عن فعل أى شىء، نصحوه بالتوجه إلى وزارة الزراعة. هناك، استقبلوه بحفاوة بالغة، وعدوه بدراسة أفكاره ومقترحاته دون أن يتسلموا منه أى بحث من أبحاثه. ظل يتردد على وزارة الزراعة لمدة أسبوعين. فى كل يوم يخبروه بأن مقترحاته ستدرس غدًا. اليوم، لأنه اليوم الأخير ثار فى وجه الموظف المختص:

- أنا لست خائنًا أو أبلها، أريد مقابلة الوزير الآن.

ثـار الموظـف بـدوره، وكان يكفـى جـدًا أن يسـمع ضبـاط الأمـن صـوت الموظـف المسـؤول حتـى التفـوا حـول الدكتـور «فـؤاد»، حملـوه وألقـوا بـه علـى قارعـة الطريـق... تـرى مـاذا سـيفعل معـه الحاقـدون والحاسـدون عندمـا يعلمـون بفشـله فـى مهمتـه فـى بلـده؟...

عـاد مـن ذكرياتـه علـى رنـين منبـه التليفـون.. لا يبقـى علـى موعـد الطائـرة سـوى خمـس سـاعات فقـط.. ارتجـف وهـو يبتسـم فـى سـخرية، رحـل مـن هنـا منـذ ثلاثـين عامًـا مرتجفًـا خائفًـا، ويرحـل الآن بعـد أن وصـل إلـى درجـة خبيـر مرتجفًـا خائفًـا...

فـى الطريـق إلـى المطـار مـرت بجـواره عربـة نقـل الموتـى، التفـت ليكتشـف أن نوافـذ العربـة شـفافة كأن ليس هنـاك أى حرمـة للميـت...

الجثـة تـرتج داخـل العربـة مـن أثـر المطبـات.. و جثـة الدكتـور «فـؤاد» تـرتج مـن أثـر المطبـات...

●●●

آدم و حواء

القمر يرقب الأرض من عليائه، يرسل أشعته الفضية على صفحة البحر. البحر يبعث برائحة اليود تشفى الصدور وتطهر النفوس، بيد أن الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان .

جلس «خالد» على مقعده الصغير قابضًا على عدة الصيد بيد من حديد لا يلين... يتأمل الأفق المجهول الممتد أمامه برهبة، لأول مرة فى حياته يتملكه الخوف... بالرغم من عضلاته المفتولة وصدره العريض إلا أن بريق الحياة بدأ يخفت فى القلب...

شعر بالبوصة ترتجف فى يده فراح يدير الماكينة وهو يرنو إلى الأفق فى استسلام. كانت الصنارة بلا سمكة و بلا طعم. ابتسم فى لا مبالاة... لا يبغى صيدًا ثمينًا لأنه يعلم جيدًا أن البحر الليلة غير ملائم للصيد، لكنه يبغى الهروب من الكلمات التى ترن فى أذنيه. الكلمات تغزه فى قلبه فتثير كرامته و رجولته.

أخرج زجاجة الخمر من ثلاجته الصغيرة وراح يعب منها فى نهم. ثم طوح بوصته مرة أخرى وهو يتأمل سحابة شفافة تغلف القمر فى غموض. تذكر «ميسون» بابتسامتها الفاتنة المفعمة برائحة الورود وألوان الزهور...

منذ أن وقعت عيناه عليها انبهرت أنفاسه، كأنها عروس البحر تسلب البحارة عقولهم ثم تجذبهم إلى جنتها البعيدة القابعة خلف البحار.. عندما حاول الاقتراب منها شعر بضعف عضلاته المفتولة فى مواجهة جمالها ونعومتها.. استحوذت على كل كيانه، قلبه وعقله، فراح يهيم وحيدًا فى الأحلام الوردية بعد أن ضاق ذرعًا بالأصدقاء و الزملاء.. فقد الإحساس بالحياة حتى أن أوتار العود التى كان يعشقها أصبحت عاجزة عن إسعاده. استجمع شجاعته متقدمًا نحوها بخطوات مترددة و قلب ملهوف. قدم لها الورود بأصابع مرتجفة.. نظرت إليه فى دهشة. احتوته بعينيها فاكتشف أن العقل مهما كان ذكاؤه أو حكمته عاجزًا تمامًا عن التعامل مع كل هذا الصفاء.. اعتذر فى تلعثم لأنه لا يملك شيئًا يقدمه لها سوى الوردة، العزف على العود ليست مهنة مربحة على الإطلاق فى زمن الديسكات و موسيقى الميتال.. ابتسمت قائلة:

- لغة الورود مهذبة راقية لا يفهمها إلا القليلون.

نمت شجرة الحب وتضخمت، بسطت فروعها فى كل مكان، تنشر ظلها الوارف كأنها تحتضنهما.. رقص قلبه طربًا ليلة الزفاف. تعانقت الأرواح قبل الأجساد... بعثت «ميسون» فى الحياة رائحة الجنة فانهمك «خالد» بحثًا عن أسرار الأوتار السحرية.. بدأ فى تسجيل ألحانه محاولاً ترك أثرًا نبيلاً فى هذا العالم قبل أن يموت.

كل مخلوق فى هذا العالم يسعى بحثًا عن هدفه قبل الرحيل. الأمواج تطوف كل أنحاء العالم، تجوب كل البحار، تعتقد فى نفسها أنها تبغى السكينة على شاطئ الأمان لكنها فى النهاية تلقى حتفها على صخور صلدة لا ترحم...! لكن الذى لا شك فيه أن الأمواج الجبارة ستلقى ربها بنفس راضية لأنها حفرت شقوقًا عميقة فى الصخور تحمى الأسماك الصغيرة من الوحوش بينما الأمواج الضعيفة ستلقى ربها بنفس متخاذلة...

خفق قلبه عندما تذكر طفليه.. لا يعرف ما الذى يستطيع أن يفعله من أجلهما؟! كانت الأفكار واضحة عندما كانت الطموحات محدودة و بسيطة...

نمت طموحاته بعد أن ورث عن عمه قطعة أرض وسط المدينة بالإضافة إلى بعض الأموال فى البنك.. اشترى لنفسه سيارة. أغدق على «ميسون» بأندر وأروع أنواع الزهور.. ثم قرر إنشاء معهدًا صغيرًا متخصصًا فى تعليم فن العود فيتفاخر طفليه بأبيهما الذى حرك القلوب بعد أن عمرها بالحب و الإيمان بعظمة الخالق و رحمته...

رفضت «ميسون» إقتراحه. اقترحت إنشاء مركزًا تجاريًا يضمن مستقبل الصغيرين.. ثار «خالد» مدافعًا عن أفكاره. إذا أُظلمت النفوس وانتُزعت الرحمة من القلوب انتشرت الفوضى

وعم الخراب.. بيد أن «حواء» هى «حواء» فى كل زمان و مكان.. ثارت «ميسون» متهمة إياه بالضعف و التخاذل وضياع حق الصغيرين فى حياة كريمة بعيدًا عن الأحلام و الأوهام...

ضاق بسخريتها فخرج إلى الصيد لا يبغى إلا رائحة اليود لعلها تشفى جروحه فتعيد إليه هدوءه المفقود... اقتحم أذنيه آذان الفجر من المسجد القريب.. تدفقت الدماء فى رأسه خجلاً، تدفق العرق من كل جسده باردًا كالثلج.. كيف يدخل المسجد وهو ثملاً؟

عندما كان فقيرًا كانت متعته مع رفاقه فى المقهى إلى أن يحين آذان الفجر فيهرول إلى المسجد يصلى بقلب خاشع هادئ.. حذره الإمام كثيرًا من فتنة المال.. بيد أن «آدم» هو «آدم» فى كل زمان و مكان...

أخرج زجاجة الخمر وراح يعب منها مفتعلاً الشعور بالنشوة وهو يقول فى نفسه: أليس من حقى بعض المتعة مثل بقية خلق الله!..

تراقصت الأمواج أمامه مثل جنيات صغيرات لا يردن شيئًا من هذا العالم سوى إسعاده.. بينما بدت فى الأفق عروس البحر تتلوى فى إغراء بجسدها البض الأملس...

هب واقفًا جاحظ العينين. شعر بالصخور الصلدة تحت قدميه كأنها بساط أملس مصنوع من أفخر أنواع الحرير. أشارت

لـه العـروس فـى دلال وعلـى شـفتيها ابتسـامة الملائكـة، رد التحيـة مندهشًـا.. أشـارت بيدهـا كأنهـا تعـزف علـى العـود فقـال متجهمًـا فـى أسـى:

- لا أحـد يحتـرم العـواد بينمـا يلقـون بـآلاف الجنيهـات تحـت أقـدام الراقصـات.

قالت «العروس» و هى ترنو إليه فى رجاء:

- ضـم العـود إلـى ضلوعـك و اسـتخرج الألحـان مـن سـويداء قلبـك فأنـا لا أسـتطيع النـوم إلا علـى رنـين الأوتـار.

ضحـك فخـورًا بنفسـه معتـزًا بفنـه، وجـد أخيـرًا مـن تتلهـف رنـين الأوتـار.. فألقـى بنفسـه فـى البحـر سـعيدًا بتحـرره مـن كل آلام العالـم الفانـى.. لـم يلتفـت إلـى صـراخ الصيـاد العجـوز ذو اللحيـة البيضـاء الـذى كان يجلس بالقـرب منـه، راح يسـبح بـكل مـا فيـه مـن قـوة الحـب للإنسـانية المعذبـة التـى ضلـت الطريـق إلـى خالقهـا..

●●●

فـى صبـاح اليـوم التالـى، أتـت «ميسـون» تبحـث عـن زوجهـا الـذى لـم يعتـد البيـات خـارج المنـزل. لـم تجـد سـوى مقعـده الصغيـر محاطًـا بـكل أدواتـه. دارت حـول نفسـها بحثًـا عـن شـخص مـا، فلـم تجـد سـوى الصيـاد العجـوز ذو اللحيـة البيضـاء، أسـمر البشـرة، مجعـد الوجـه، بينمـا فـى عينيـه بريـق الـذكاء وهـدوء الحكمـة.. سـألته فقـال:

- خذى أدوات «خالد» و ارجعى إلى بيتك.

اندهشت «ميسون» بعد أن علمت بما حدث، طفرت الدموع ساخنة من القلب قبل أن تسقط من العين ثم اندفعت فى جنون تقبل كل أدوات «خالد». ربت عليها الصياد العجوز فى حنان أبوى ثم قال ناصحًا:

- لو سمع الغريق نداء الإنسان الذى يحبه قد يعود، لكن بشرط أن يكون النداء نابعًا من القلب.

راحت «ميسون» تنادى بكل ما فيها من قوة الحب والضياع وهى ترقب البحر بلهفة.. بحر جبار لا أول له ولا آخر. بحور تحيط العالم بأسرارها وغموضها. بحور تسحر الألباب و تفتن النفوس. النهاية المحتومة هى الهلاك.. ترى أين «خالد» فى هذا العالم المترامى إلى ما لا نهاية له؟ ماذا فعلت به التيارات والدوامات و الوحوش العملاقة؟

مرت ساعة كأنها دهر من الزمن ثم طفت جثة «خالد» ممزقة الثياب بينما على شفتيه ابتسامة صافية...

●●●

شوكولاتة

تكومت داخل نفسها وهى تقبض بيدها على قطعة الشوكولاتة. ترى الناس حولها عمالقة جبابرة، لا يشعرون بالضعفاء ولا الصغار، لا يأبهون بطفلة صغيرة مثلها لا يتعدى عمرها الأربع سنوات.

بدأت المشكلة عندما تاقت نفسها إلى قطعة شوكولاتة. اصطحبها والدها إلى البائع وهو يهدهدها ويداعب شعرها الناعم الطويل. عند البائع، انخلع قلبها رعبًا من هدير الثوار الغاضبين، هدير الغضب يزلزل الأرض ويهز كل كيانها. أنهى البائع عمله بسرعة، قبض الثمن ثم أغلق متجره وهو يعتذر لوالدها قائلاً:

- المؤيدون قادمون من الجهة المقابلة.

أغلق متجره فى اللحظة الأخيرة. اشتبك المؤيدون والمعارضون. انتشرت رائحة الدخان الخانق، انتفضت تصرخ فى ذعر من فرقعة الطلقات النارية. حاول الأب اختطافها والعودة بها بسرعة لكنه سقط تحت الأقدام وراح العمالقة يدهسونه دون أن يشعروا.

المفاجأة وحش كاسر يهاجمها، يصم أذنيها عن السمع، يكتم أنفاسها ويمنعها عن الصراخ. شعرت بنفسها مخلوق حقير، مجرد حشرة بسيطة تُدهس تحت الأقدام.

جرت فى الشوارع تدق الأبواب لكن أبواب كل العمارات مغلقة من الخوف. لم تجد مهربًا من جحيم المعركة التى تدور أمامها. ثم اشتمت رائحة عطرة طاهرة. شعرت بالظل يحوم حولها ثم هبط عليها الغطاء الساتر.

لم تعد ترى شيئًا وهى بداخل هذا الغطاء الحريرى لكنها سمعت دوى القنابل و انهيار العمارات الشاهقة، سمعت صوت تحطيم الزجاج والطلقات النارية، سمعت صراخ الرجال والنساء والأطفال. بعد أن انتهت المعركة انكشف عنها الغطاء السحرى الساتر.

رأت أمامها عالم آخر غريب عنها، دنيا غامضة موحشة لا تعرفها، تحولت المدينة إلى خرائب.

راحت تتجول بمفردها فى فزع. عواء الكلاب المسعورة يخلع قلبها من مكانه فتجرى فى هلع إلى أن وصلت إلى بركة مياه قذرة تتجمع حولها القطط. أنياب القطط حادة عنيفة كأنها وحوش كاسرة، كأنها أسود أو نمور تتخفى فى شكل قطط. مواؤها كترانيم أرواح القبور.

راحت تتجول بين الخرائب كروح هائمة ضالة تبحث عن هدف لا تعرفه إلى أن اشتمت نفس الرائحة العطرة الطاهرة وشعرت بالحركة حولها. التفتت لتجد أمامها فتاة خمرية رائعة

الحسـن، خصلـة شـعرها الأسـود الناعـم تداعـب جبهتهـا، لا تعـرف لمـاذا شـعرت بالأمـان مـع هـذه الفتـاة. هـل بسـبب جمالهـا وسـحرها؟ أم خفـة ظلهـا؟ أم لأنهـا ترتـدى قميصًـا قطنيًـا يتزيـن بالنقـوش الفرعونيـة؟

ارتمت فى أحضانها و هى تنعم بالشوكولاتة.

●●●

الكرة الزجاجية

لا يريد العودة إلى منزله الآن.. فى منزله يشعر بالضعف والهوان.. والده يتهمه بالفشل والحقد على الناجحين.. والده يحاول إقناعه أن أفعاله الهوجاء المتهورة هى التى جعلتهم يرفضون تعيينه معيدًا بالجامعة بالرغم من تفوقه و تقديراته المرتفعة.. كما يؤكد له بأنهم لن يسمحوا له أبدًا باستكمال دراسته العليا بأى طريق كان.. حتى لو على نفقته الشخصية.. بينما أخته التى تصغره بعامين تربت على ظهره برفق وهى تنصحه بنسيان الماضى تمامًا و الالتفات إلى المستقبل..

ولكن أى مستقبل؟!.. مضى على إتمام دراسته خمسة أعوام دون عمل. مازال حتى الآن يترقب أول كل شهر ليحصل على مصروفه من والده.. كيف يكون الرجل رجلاً دون عمل؟!.. وجوده مثل عدمه، وربما يكون عدم الوجود أفضل كثيرًا...

الأصدقاء والجيران انفضوا من حوله الواحد تلو الآخر وهم يتهمونه بالغباء.. يجب على الإنسان التعايش مع الأمر الواقع.. هكذا يقولون.. بينما هو يرفض و يناقش بحدة و انفعال شديد.. وفى النهاية وجد نفسه يهيم على وجه وحيدًا فى الأسواق...

اصطدمت أذناه بصيحة مفزعة.. إزالة.. إزالة.. دب فى الشارع هرج ومرج. راح الباعة الجائلون يجرون ببضاعتهم فى جميع الاتجاهات. اصطدم أحدهم بسيارة فدبت المشاجرة بالأيدى والأرجل.. لكنه بالرغم من كل هذا الزحام وهذا الضجيج يشعر كأنه يعيش فى كرة زجاجية ضخمة.. يرى الناس من حوله يتخبطون ببعضهم البعض، يتشاجرون، دون أن يسمع صيحاتهم أو يفهم حديثهم.. الفراغ الهائل يحيطه من كل جانب، يبتلعه. الصمت يثير أعصابه، الهدوء يحطم أفكاره.

اصطدم به أحد الباعة فراح يحث الخطو إلى ناصية الشارع كأنه يخشى على كرته الزجاجية من الانكسار. من المؤكد أن حياته بداخل هذه الكرة أفضل كثيرًا من صراع ينتهى إلى الذل والمهانة...

أشاح بوجهه عن السوق ممتعضًا. استدار إلى شارع جانبى. الشارع واسع طويل، تحفه الأشجار الضخمة على الجانب الأيمن. رياح الخماسين ترتع فى نشوة، تكتم أنفاس الأشجار بترابها الناعم الأملس فتتساقط الأوراق الجافة.. تجمعت بعض الأوراق على شكل دائرى مثير فرأى وجه والدته بطرحتها البيضاء...

فى هذا الشارع مدرسته الابتدائية. كانت والدته تأتى إلى المدرسة من حين لآخر، تسأل المدرسين عن نشاطه وسلوكه. إذا سمعت أخبارًا حسنة تربت عليه بحنان بالغ وهى تقول بفخر:

هذا ابنى. وإن سمعت أخبارًا سيئة تتناقش و تتحاور معه ساعات طويلة. كان يشعر بالفخر و الاعتزاز عندما تأتى والدته إلى المدرسة.. تحتضن كفه بكفها على هذا الطريق فيشعر بأمان غريب لا يشعر به أبدًا إلا معها.

بجوار مدرسته هنالك فيلا صغيرة. فى حديقة الفيلا كانت هناك شجرة برتقال. فى ذات يوم تسلق مع زملائه السور وراح يلتقط بعض الثمرات القريبة من يده ثم عاد إلى البيت سعيدًا. عندما علمت والدته بذلك انهالت تلومه بعنف:

- هذه سرقة. لن آكل هذه الثمار و لن تأكل أنت أيضًا.

فصاح محتجًا:

- كل زملائى يفعلون ذلك. لست أقل منهم شجاعة، يجب أن أكون مثلهم.

انهارت الأم على المقعد و هى تقول باكية:

- أنت ابنى أنا، ابنى لن يكون لصًا.

ربتت الجدة على ظهر ابنتها ثم قالت لحفيدها بهدوء:

- اللصوص يدخلون النار، ألم يقل لكم مدرس الدين ذلك؟

احتج مؤكدًا:

- المدرسون أنفسهم يأتون لنا بالسلم الخشبى لنقطف الثمار ثم يأخذون معظمها ويتركون لنا حبات قليلة.

ذُهلت الجدة قائلة:

- ماذا يعلمونكم فى المدرسة؟.. السرقة؟!..

أجاب فى قلق:

- يا جدتى، يجب أن أكون مثل أصدقائى.

كظمت الجدة غيظها وهى تقول:

- والدتك مهندسة محترمة، ووالدك طبيب محترم، أولاد الناس المحترمين لا يسرقون حتى لو أصبح كل الناس لصوص.

فى اليوم التالى امتنع عن سرقة البرتقال وهو يزهو بنفسه وسط زملائه قائلاً: أنا ابن ناس محترمين.

منذ ذلك اليوم أصبح كثير الفخر و الاعتزاز بأمه وأبيه، إلى أن وصل إلى المرحلة الثانوية. فى هذه الأيام خفق قلبه لأول مرة. أخذه سحر ودلال إحدى الفتيات تسكن فى نفس شارع مدرسته. جف حلقه، تردد كثيرًا قبل أن يقترب منها، لكنه راح يشجع نفسه معتقدًا أن أى بنت فى الدنيا تتمنى معرفة أولاد الناس المحترمين. داعبها بلطف وحذر. واستجابت لدعابته. تحدثت معه مرتين أو ثلاثة، لكنه سرعان ما اكتشف أن هناك شخص آخر يداعبها

بسيارته. علم من أصدقائه أن هذا الآخر يدعى «منصور أبو السعد». ابن مقاول كبير ثرى جدًا. لا يجهل أحد فى المدينة اسم أبيه البراق صاحب المشروعات الضخمة، يشيد المدن الجديدة، يرصف الطرق و ينشئ الجسور. بالرغم من أن «منصور» فى مثل سنهم، أى أنه لم يصل إلى السن القانونى الذى يسمح له بقيادة السيارة، إلا أن والده اشترى له سيارة جديدة فاخرة.. فى النهاية ركبت محبوبته سيارة «منصور» وهى تقهقه فى سحر و دلال. هدر المحرك بينما وقف هو على قارعة الطريق، العرق يتفصد منه بغزارة، لا يدرى ماذا يفعل وأين يذهب؟...

حاول استرجاع محبوبته فدبت المشاجرة بالأيدى و الأرجل. ثم عاد إلى منزله ممزق الثياب. عندما علم والده بذلك استشاط غضبًا وهو يقول:

- يجب أن تعلم أن هناك قانون. الفرق بين الإنسان والحيوان فى العقل. الفرق بين الغابة والمدينة فى القانون.

منذ هذا اليوم اجتنب التجارب العاطفية إلى أن يصبح رجلاً قادرًا على تحمل المسؤولية.. انهمك فى القراءة محاولاً تثقيف نفسه ليكون إنسانًا متحضرًا مهذبًا. عاونته أمه، أعدت له مكتبة صغيرة متنوعة المعارف بين تاريخ وفلسفة وأدب. ومنذ هذا اليوم أيضًا، قرر دراسة القانون...

فى الجامعة، لفت أنظار أساتذته بجده و اهتمامه، وراح يحلم برسالة الماجستير ثم الدكتوراه... قبل الامتحان النهائى بدأت التهديدات تتوالى عبر التليفون وبدأت أمه تحذره من السير وحيدًا فى الشوارع الهادئة الخاوية، وكان هذا الشارع من الشوارع التى حذرته منها أمه ولكن...

ولكن الآن لا داعى من الحذر. لا يوجد شىء يخشى عليه من الضياع. لا محبوبة ولا مجرد حلم بالمحبوبة. وكيف يفكر الإنسان فى الحب وهو بلا عمل ولا مجرد حلم بالعمل؟!...

هبط من الرصيف دون أن يشعر كأنه واقعًا تحت تأثير التنويم المغناطيسى. اقشعر بدنه لصفير فرامل أحد السيارات وراح السائق يسب و يلعن، كاد أن يشتبك معه ويحطم زجاج سيارته لولا أنه لاحظ أن اللوحة المعدنية لا تحمل إلا رقمين إثنين فقط وبجوارهما نسر منفوش الريش. ملك أعصابه بصعوبة شديدة ثم اعتذر بأدب و راح يكمل طريقه..

أخرج سلسلة مفاتيحه وراح يحك السيارات الرابضة على جانب الطريق. كان صوت احتكاك المفاتح وهو يخربش الطلاء البراق للسيارات فى أذنيه مثل لحن عاطفى جميل، فابتسم فى نشوة...

●●●

كان لابد أن يتم رحلته اليومية عند الجسر.. استدار جهة اليسار فرأى اللوحة الضخمة عليها سهم يشير إلى جسر «المستقبل». كادت ضحكاته أن تجلجل لولا خشيته من أن يتهمه أحد بالجنون. تذكر الاحتفالات المهيبة التى أقيمت فى حفل افتتاح الجسر فى العام الماضى. حضر الافتتاح الوزراء وكبار المسؤولين، قامت كل المحطات التلفزيونية بإذاعة الحفل، أشاد المسؤولون و كبار رجال الأعمال بالإنجاز العظيم. فى هذه الأيام كتبت الصحف: عن طريق هذا الجسر ستدخل الكهرباء إلى آلاف البيوت فى القرى والنجوع. ستتحول الورش الصغيرة فى العشوائيات إلى مصانع كبيرة يعمل بها آلاف الشباب. عن طريق هذا الجسر سيخرج آلاف الأطفال إلى المدارس وآلاف الشباب إلى الجامعات.. هلل الناس. فرحوا، زغردوا، آملين فى مستقبل أفضل...

وقف فى مكان محدد ليرقب الجسر من بعيد، الجسر يتكون من ثلاثة طوابق، يمر فوق أحد المناطق العشوائية، كانت أرض زراعية ثم تحولت إلى برك ومستنقعات ترتع بها كل أنواع الحشرات، تتخللها بيوت صغيرة لا تتعدى طابقًا واحدًا أو طابقين. الأعمدة تشققت فى خلال بضعة أشهر. يهبط الجسر ويرتفع فى أماكن كثيرة بفعل هبوط المبانى الخرسانية، فبدى مثل ثعبان ضخم يتلوى فى انتظار الفرائس، بينما السور الحديدى منزوع من أماكن كثيرة...

فارت الدماء فى رأسه عندما تذكر أن شركات «أبو السعد» نالت أرفع الأوسمة والشهادات على هذا الإنجاز العظيم، بينما والدته التى كانت مهندسة بالحى دفعت حياتها ثمنًا لهذا الجسر...

سمع صوت ارتطام ثم صراخ و عويل. هرول مع الناس ليستطلع الأمر. كان أوتوبيس مدارس قد سقط من أعلى الجسر من أثر أحد المطبات. أبت الأرض أن تشرب دماء الصغار فتكونت برك الدم فى المكان.. انهمك بعض الأهالى فى رفع الأحياء منهم بينما راح البعض الآخر يغطى الجثث الصغيرة بأوراق الجرائد...

وقف يرقبهم مذهولاً جاحظ العينين ثم وضع يديه فى جيبه وهو يقول فى نفسه: يجب أن تصرخوا، يجب أن تموتوا، تستحقون أكثر من ذلك.. و تمنى من أعماقه أن تكون ابنة الضابط الذى مزق المحضر من بين هؤلاء الأطفال...

استدار عائدًا، يعلم جيدًا أن والده سيغادر الدار بعد قليل لمقابلة أصدقائه فى المقهى. إقترب من منزله قبيل أذان المغرب بقليل. التقى إمام المسجد الذى كان يرتدى جلبابًا أبيض فوقه عباية بنية اللون، لحيته الطويلة ناصعة البياض كالثلج، يشع من عينيه نور الإيمان، يتجه إلى المسجد بخطوات هادئة وقورة. مد الإمام يده مرحبًا ثم سأله مبتسمًا:

- هل ستصلى معنا المغرب؟

أجابه باقتضاب:

- سآتى بعد قليل.

دلف الإمام إلى المسجد بينما وقف هو يرقب المصلين وهم يتوافدون. معظمهم يسبحون، كلهم يتمتمون بالأدعية. ابتسم فى سخرية و هو يتساءل فى نفسه: هل الإيمان يعنى الخضوع والاستسلام والضعف؟!..

كلهم يعلمون بقصة والدته.. عندما انهالت التهديدات عبر التليفون فى منتصف الليل ذهب إلى قسم الشرطة لتحرير محضر بذلك. أكد فى المحضر أن والدته ترفض التوقيع على استلام الجسر لأنه غير مطابق للمواصفات و المقاول يهددها بالقتل.. أبدى الضابط اهتمامًا كبيرًا و طمأنه كثيرًا.. لكنه بدل موقفه تمامًا فى اليوم التالى. أخبره أن قائده طلب المحضر ومزقه.. الاتهامات باطلة و لا دليل عليها، الإنسان الناجح دائمًا يكون محاطًا بكثير من الفاشلين الحاقدين.. فى الأسبوع التالى انقلبت السيارة بوالدته وهى فى طريقها إلى العمل...

كان هناك بعض الشهود يؤكدون وجود سيارة أخرى كانت تطارد سيارتها. لجأ إلى أستاذه بالجامعة، سانده الأستاذ فى البداية ثم خذله.. لجأ إلى الشهود فبدلوا أقوالهم..

فى هذه الأيام دبت خلافات كثيرة مع والده. الأب يخشى على ابنه الثائر من المواجهة. طلب منه الابتعاد عن هذا الموضوع تمامًا. لقد حدث ما حدث والأعمار بيد الله وحده.. ولكن.. كيف يطمح إلى دراسات عليا فى القانون وهو عاجز عن الدفاع عن حقه؟!..

لجأ إلى كل من يتوسم به الإيمان والتقوى، فقال البعض وهو يتفلسف: لا يغنى حذر من قدر. وقال آخرون: الإنسان الذكى لا يقف أمام القطار.. كلهم أتموا حديثهم الطويل قائلين: لا حول ولا قوة إلا بالله...

انتبه على صوت تحطيم زجاج. التفت فرأى مجموعة من الشباب يرتدون جلابيب بيضاء قصيرة، يطلقون لحيتهم، يلقون بالحجارة على الكنيسة التى كانت بجوار المسجد. انتشى لصوت الصراخ و العويل، ابتسم عندما رأى بقع الدم على الطريق ثم راح يلقى بالحجارة بكل قوته وهو يردد معهم:

- الله أكبر ولله الحمد...

زغردت امرأة ثم قالت:

- هذا أفضل رد على تصريحات البابا .

خرج إمام المسجد بعد الصلاة ليستطلع الأمر. وقف برهة مذهولاً ثم انصرف و هو يردد:

- أعوذ بالله من غضب الله...

مذكرات «فيروس»

سعدت كثيرًا بوجودى داخل هذا الجسد الضعيف. إنه جسد طفل صغير لم يتم الخامسة من العمر. مقاومته تكاد تكون شبه معدومة، لذلك رحت أتكاثر فى هدوء وأمان دون أن يشعر أحد بوجودى.

بدأ الطفل يعانى من الخمول وتعكر المزاج. اعتقد الأهل أنه ربما الانهاك والتعب من اللعب واللهو. عندما سمعت هذا التفسير منهم أمرت أولادى بالتوجه إلى المعدة فاندفعوا يهاجمون فى قوة. بدأ الطفل يتقيأ كل ما فى جوفه. حتى العصائر والمشروبات الخفيفة، كان يتقيأها على الفور. فى خلال بضع ساعات ارتفعت الحرارة إلى الأربعين. شحب وجه الطفل وراح العرق يتفصد من وجهه بغزارة وهو يرتجف وينتفض.

حمل الأب ابنه متوجهًا إلى المستشفى. تجمدت فى مكانى وأمرت أبنائى بتجميد كل نشاطهم فورًا. أنا لا أكره شيئًا فى هذه الدنيا أكثر من المستشفى. أعدائى كثيرون فى مثل هذه الأماكن.

فى المستشفى التقيت بالطبيب وبدأت أتوجس من الخوف. كان الطبيب طويلاً عريض المنكبين، أسمر البشرة، له لحية سوداء كثيفة غير مهذبة، بينما يحلق شاربه. الابتسامة لا تعرف طريقًا

إلى شفتيه. عندما بدأ هذا الطبيب فى الكشف قال: بسم الله الرحمن الرحيم. زلزلتنى هذه الكلمة وشعرت أن نهايتى قد اقتربت على يديه.

شخص الطيب المرض على أنه برد فى المعدة ثم كتب مجموعة من الأدوية الخافضة للحرارة و مجموعة أخرى من المضادات الحيوية. ثم أمر الممرضة بالسهر بجوار الطفل طوال الليل.

يبدو أن هذا الطبيب يعرف طريقه جيدًا. لقد بدأ الفحص بذكر اسم الله. لا بد إذن من اتخاذ كل الاحتياطات والحذر التام.

أمرت أبنائى بالانسحاب من المعدة. المضادات الحيوية ستجعل الطفل يفرز أجسامًا مضادة قد تفتك بى و بأبنائى. بدأت حالة الطفل فى التحسن فى خلال ساعتين فقط. مجرد أن لاحظت الممرضة التحسن تركت الطفل وذهبت إلى حجرتها.

بعد أن خرجت الممرضة دخل الحجرة رجلاً أسمر متوسط الطول. علمت بعد ذلك إنهم يطلقون على هذا الرجل اسم: عم «خميس». كما علمت أن عم «خميس» ما هو إلا موظف بسيط مسؤول عن الأمن فى المستشفى لكنه يتطوع عن طيب خاطر لمساعدة المرضى. سألهم عم «خميس» إن كانوا يحتاجون إلى أى شىء من خارج المستشفى أو من داخلها. فأجابت الأم بالنفى.

نظرات عم «خميس» رغم سماحتها وطيبتها إلا أنها أثارت مخاوفى. لكنى لم أعرف السبب فى حينها، لقد علمت السبب بعد ذلك.

فى اليوم التالى أتى الطبيب الملتحى لمتابعة حالة الطفل. كانت الأم تجلس بجوار فراش ابنها تقرأ فى المصحف. عندما رأت الطبيب صدقت ثم أغلقت المصحف بهدوء. قال الطيب مبتسمًا:

- قراءة القرآن شىء عظيم . ابنك فى حاجة إلى ذلك الآن.

قالت الأم فى هدوء:

- لقد اعتدت على قراءة القرآن منذ الصغر.

برقت عينا الطبيب ببريق الغضب ثم قال:

- لكنك تنطقين كلمة القرآن بطريقة خاطئة. أنت تضخمين حرف الألف و هذا خطأ. اندهشت الأم من ملاحظة الطبيب ثم قالت:

- أنا لست عالمة فى أمور الدين، أنا أقرأ على قدر علمى.

ثار الطبيب قائلاً:

- هذا اعتقاد خاطئ. تعلم قراءة القرآن بطريقة صحيحة فرض على كل مسلم. لقد أمضيت خمس سنوات من عمرى من أجل تجويد القرآن.

فـى هـذه اللحظـة سـعدت كثيـرًا . الطبيـب الـذى كنـت أخشـاه لأنـه ذكـر اسـم اللّه قبـل الفحـص، لا يهتـم إلا بالقشـور والشـكليات ويهمـل الجوهـر تمامًـا . بـدا لـى مضحـكًا، رأسـه المحاطـة بشـعر رأسـه وشـعر لحيتـه تبـدو مثـل رأس الأسـد المخيـف لكنـه فـى الحقيقـة لا يعلـم أيـة معلومـة عنـى.

فـى مسـاء هـذه الليلـة اسـتجمعت شـجاعتى. تكاثرت أكثـر وأكثر، جمعـت أبنائـى حولـى وطلبـت منهـم الهجـوم علـى الرئـة. تحشـرجت أنفـاس الطفـل و ضـاق صـدره. عندمـا لاحظـت المرضـة ذلـك جـرت إلـى رئيـس القسـم الـذى اسـتمع إلـى ملاحظاتهـا بحـرص ثـم أرسـل الطبيـب المتخصـص فـى الأمـراض الصدريـة.

طبيـب الأمـراض الصدريـة كان علـى النقيـض مـن الطبيـب الباطنـى. كان شـديد الأناقـة، فخـورًا بسـاعته الذهبيـة، تفـوح منـه رائحـة العطـر الثمـين. نصـف كلامـه باللغـة الإنجليزيـة رغـم أنـه لا يجيـد نطقهـا . بعـد نظـرة خاطفـة شـخص الحالـة علـى أنهـا حساسـية فـى الصـدر . أخبرتـه الأم بمـا قالـه الطبيـب الباطنـى، فثـار فـى وجههـا متهمًـا الطبيـب الباطنـى بالجهـل. هـذا الطبيـب الملتحـى المتخلـف يقضـى وقتـه فـى دراسـة نطـق اللغـة العربيـة بينمـا هـو يجهـل كل شـىء عـن الطـب الـذى تخصـص فـى دراسـته و يمارسـه علـى البشـر.

سألته الأم عن سبب هذه الحساسية فقال أنه الجهل والتخلف. المياه ملوثة، الغذاء ملوث، الهواء ملوث، عادات الناس الخاطئة الناجمة عن الجهل تؤدى إلى كل هذه المصائب.

ارتجفت عندما سمعت هذا الكلام. يبدو الآن أننى أمام عالم جليل يعلم عنى كل شىء. لكن عندما اقترب الطبيب لاستكمال فحص الطفل لاحت لى بارقة الأمل. الطبيب الذى يتحدث عن العلم تفوح رائحة الخمر من فمه. أدركت فى هذه اللحظة أنه لا يختلف كثيرًا عن الطبيب الملتحى.

ضحكت من أعماقى لتشخيص هذا الطبيب، وذلك لأننى قررت الاستمرار فى المراوغة والعبث بهذه العقول الجاهلة.

فى المساء أمرت أبنائى بتجميد كل نشاطهم. عندما بزغ الصباح أصر الطبيب الباطنى على تشخيصه، برد فى المعدة. وأصر طبيب الأمراض الصدرية على رأيه، حساسية فى الصدر. راح الطبيبان يتشاجران. قال الطبيب الملتحى:

كيف تدعى العلم و أنت لا تصلى و لا تقرأ القرآن.

أنا أبحث فى النت عن كل الأبحاث العلمية الجديدة بينما أنت تجهل استخدام الكومبيوتر.

أنـا أعلـم وكل النـاس تعلـم منـك أنـت شـخصيًا أنـك تبحـث فـى النـت عـن المواقـع الجنسـية. والجميـع يعلـم منـك أنـت شـخصيًا أن معظـم لياليـك حمـراء مـع المرضـات والمريضـات.

أعيـش حياتـى الطبيعيـة خاليًـا مـن أى عقـد مثلـك. أريـد عندمـا أمـوت لا يكـون هنـاك شـيئًا أتمنـاه و لـم أعملـه.

راح طبيـب الأمـراض الصدريـة يدافـع عـن حريتـه و حقـه في الحيـاة مثلمـا يحلـو لـه، والطبيـب الباطنـى يتوعـده بالعقـاب وعـذاب القبـر ويهـدده بالثعبـان الأقـرع. بينمـا الطفـل يجلـس بينهمـا شـاحبًا صامتًـا لا يـدرى سـبب هـذا الشـجار.

فـى صبـاح اليـوم التالـى أحضـر الطبيـب الملتحـى إطـارًا أنيقًـا وعلقـه علـى أحـد جـدران المستشـفى، فى داخل الإطار الآيـة القرآنية: «وأقيمـوا الصـلاة وآتـو الـزكاة». فـى اليـوم التالـى أتـى طبيب الأمراض الصدريـة بإطـار أنيـق مكتـوب داخلـه: «الحيـاة حلـوة».

أقـول لكـم الحـق. لـم أعـد أهتـم بأمـر هذيـن الطبيـين. إنهمـا لا يشـكلان أى خطـر علـىّ. مـا كان يقلقنـى هـو عـم «خميـس». كان يأتـى كل ليلـة للإطمئنـان علـى صحـة الطفـل. كثيـرًا مـا كان يداعبـه فـى رفـق وهـدوء فيبعـث فـى نفسـه الأمـل. طيبـة هـذا الرجـل تقلقنـى. صمتـه يحيرنـى. كانـت الأم تشـكو لـه مـن صـراع الطبيبـين. كل منهمـا

يصـر علـى علاجـه وهـى لا تـدرى أيهمـا علـى حـق. يصمـت عـم «خميـس» لكـن في عينيـه ذكاء فطـرى، فـى تجاعيـد وجهـه خبـرات كثيـرة. لكن، على كل حال، عم «خميس» ليس طبيبًا، لماذا يخيفنى هـذا الرجـل.

استجمعت شجاعتى وأمرت أبنائى بالتوجه إلى الجهاز العصبى. هـذا الجهاز هـو الأساس ويجب تنفيذ المرحلة الأخيرة الآن.

بدأ الطفل يعانى من التشنجات، أصبح عاجزًا عن الإمساك بالأشياء ثم بدأ فى مرحلة الهلوسة. فى خلال ثلاثة أيام نجحت فى القضاء عليه تمامًا.

حملوا جثة الطفل بسرعة، ومن حسن الحظ أن الممرضة لم تقم بتطهير الفراش. ولذلك لبدت فى هذا المكان داخل المستشفى فى انتظار الضحية القادمة.

لكن صباح اليوم التالى للوفاة، أتى عم «خميس» بإطار أنيق مكتوب داخله «اطلبوا العلم ولو فى الصين». صدق رسول الله. هـذا الحديث أصابنى بالهلع. لو استمع الأطباء لنصيحة عم «خميس» لأصبحت مصيبة لى وكارثة على أبنائى. علمت الآن سبب مخاوفى من هذا الرجل.

●●●

الصورة

الآن، لا أعلم حقيقة مشَاعرى نحوها. لا أدرى ما اسم العلاقة التى كانت ومازالت تربطنى بها. الآن، اكتشفت الحقيقة والحقيقة أغرب من الخيال.

بدأت علاقتى بها منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. حدث ذلك عندما دعانى أستاذى الدكتور «سمير» الذى يشرف على رسالتى لنيل درجة الماجستير فى الجيولوجيا إلى منزله.

أثناء انتظار أستاذى جلست فى الصالة الهادئة الأنيقة، الألوان متناسقة، اللوحات والتحف الفنية المتناثرة فى الأركان تنم عن حس فنى رفيع. فى أحد الأركان يتلألأ البيانو الأسود تحت الضوء الخافت. التفت إلى اليسار فرأيت صورتها. بيضاء البشرة، شعرها أسود طويل، فمها الدقيق ينم عن رقة مشاعرها. بينما فى عينيها صفاء غريب. سحرنى هذا الصفاء، شعرت بعينيها تجذبنى إلى عالم سحرى غامض لكنه عالم مفعم بالأمل والفرح. فى هذه اللحظة سمعت أنغام البيانو السحرية تدغدغ حواسى. لا أعرف من أين أتت هذه الأنغام السحرية، لكنى أشك الآن فى أنها أتت من أعماقى أنا وليس من العالم الخارجى المادى المحسوس.

انتبهت على خطوات تقترب، التفت لأرى أستاذى قادمًا نحوى. قادنى إلى مكتبه وجلسنا نتحدث فى بعض الأمور العلمية.

ثم التقيت بها بعد أسبوع تقريبًا. كان من عادتى التجول وحدى فى الشوارع كلما أجهدنى البحث العلمى. فى هذا اليوم ذهبت إلى الفنار القديم المهجور لأفكر بهدوء وأستمتع برائحة اليود الذكية. رأيتها من بعيد وهى تنهمك فى رسم الفنار. اقتربت منها و أنا أفتعل السعال لأشعرها بوجودى. التفتت إلىّ وابتسمت. كانت نظرة دلال مفعمة بكل مشاعر الأنثى الدافئة. جعلتنى هذه النظرة أقترب مرتجفًا. اكتشفت أنها تعرف اسمى من خلال أبيها الدكتور «سمير» وعلمت أن اسمها «مي» وهى تدرس الفنون الجميلة. لا تعشق شيئًا فى هذه الدنيا أكثر من الخطوط والألوان.

أبديت لها إعجابى باللوحة التى ترسمها فقالت لى أن الفن والعلم وجهان لعملة واحدة. كل منهما يكمل الآخر وأحيانًا كل منهما يفتح الطريق أمام الآخر. أبديت لها إعجابى برأيها ورحت أقص لها عن خطيبتى السابقة التى تركتها منذ عام تقريبًا. كنت على خلاف دائم معها، إنها ترغب فى أن أعمل فى شركة بترول لأحصل على راتب ضخم بينما أنا لا أرغب إلا فى مواصلة العلم والدراسة. بسبب هذه الخلافات حدث الانفصال. فقالت لى «مى» أن خطيبتى لم تكن تعلم حقيقة قدرى. قالت ذلك ثم همت بالانصراف.

بعد ذلك أصبحت أفتعل الأعذار لمقابلة أستاذى فى منزله. أقضى معه ساعات طويلة فى مكتبه. هو يتحدث عن أمور علمية معقدة بينما أنا أتنصت فى حرص شديد، أتلفت حول نفسى أترقب ظهورها فى أية لحظة، دون جدوى. فى البداية اعتقدت أنها ربما تكون فى رحلة قصيرة وستعود. لكن طال انتظارى، لم أجد تفسيرًا سوى أنها تعيش فى منزل منفصل بعيدًا عن والدها. وأنا لا أعلم مكان هذا المنزل.

أصبحت أحلم بها كل يوم. لا أستطيع النوم دون أن أتخيلها أمامى. أتخيلها وهى تتجول فى شقتى الصغيرة، أتخيلها وهى تجلس على مكتبى، أتخيلها فى المطبخ، أتخيلها فى ملابس البيت وملابس الخروج. أصبحت أتحدث إليها بينما فى الحقيقة أنا أجلس وحيدًا فى منزلى.

بعد أسبوعين تقريبًا التقيت بها فى الحديقة العامة. ما تزال ترسم. جريت نحوها فى لهفة. سألتها عن أخبارها ولوحاتها فأشارت إلى اللوحة وسألت: ما رأيك؟. كانت اللوحة عن طفل رضيع فى المهد. اللوحة تنم عن عاطفة الأمومة الجياشة فى صدرها. فى هذا اليوم تحدثت معها كثيرًا عن عاطفة الأمومة. قبل أن تنصرف طلبت منها شراء اللوحة فقالت:

- هي لك دون مقابل. أمثالى لا يحتاجون إلى المال أبدًا.

ضحكت و أنا أردد:

- أبدًا.. أبدًا...

أكدت لى أنها لا تحتاج إلى المال فى أى شىء.

فى هذا اليوم عدت إلى منزلى وأنا أحمل اللوحة بحرص شديد كأننى أحمل كنز ثمين. قررت أن أصنع لها إطارًا خشبيًا أنيقًا فى الورشة المخصصة لذلك ثم أعلقها على الجدار المواجه لمكتبى مباشرة. نمت وأنا أحلم بها كالعادة. فى الصباح بحثت عن اللوحة فلم أجدها. بحثت عنها فوق المكتب و تحته، فوق الفراش وأسفله، بحثت عنها فى كل مكان، فى المطبخ، بين الكتب وبين الملابس. اختفت اللوحة تمامًا، فجلست وحدى أبكى. ندمت فى هذه اللحظة لأننى لم أسألها عن عنوان مسكنها. لهفتى عليها أنستنى ذلك، صفاء عينيها سلب عقلى. والآن لا أعرف أين سأجدها.

سعيت لتوطيد علاقتى بأستاذى العزيز. لاحظت أنه يعيش وحيدًا، كما لاحظت أنه لا يتحدث عن ابنته أبدًا، من طبيعته عدم الحديث عن حياته الشخصية. يفكر بطريقة علمية منطقية صارمة. أسلوب تفكيره لا يتناسب أبدًا مع الحس الفنى الذى يحيطه. لا شك أن هذا الذوق الرفيع ناتج عن إبنته «مى». ولا شك أن الخلاف بينهما ناتجًا عن جفاء طبعه. إنه لا يفصح عن مشاعره أبدًا بينما «مى» فى غاية العاطفية. بالرغم من

ذلك سعد أستاذى بتقربى منه. أحيانًا أشعر أن سبب سعادته هو الوحدة التى يعانيها وأحيانًا أشعر أنه يشجعنى للاقتران بابنته. فى ذات يوم قال لى إنه يحبنى مثلما لو كنت ابنه. انتهزت الفرصة، استجمعت شجاعتى و قلت فى تلعثم:

- أنا أتمنى فعلاً أن أكون ابنك.

- أنت كذلك فعلاً.

قلت و أنا أمسح عرقى خجلاً و خوفًا:

- أنا لا أقصد ذلك. أنا أتمنى أن أكون زوج ابنتك.

- ابنتى من؟

قلت فى تلعثم:

- الآنسة «مى».

تقلصت كل عضلات أستاذى ثم راح يضحك فى هيستريا. أصابه السُعال فراح يضحك ويسعل حتى اغرورقت عيناه بالدموع. ثم توقف عن الضحك فجأة وراح يبكى بشدة وهو يخفى وجهه فى كفيه. بعد أن ذهبت نوبة الهوس قال لى:

- تعالى معى.

أشار إلى باب مغلق وقال:

- هذه هى حجرتها.

ارتجف قلبى، تاه عقلى لمجرد أننى أقف أمام باب حجرتها. فتح أستاذى الباب بالمفتاح ثم قال: تفضل.

الحجرة فى غاية النظافة والنظام. الفراش مرتب بعناية فائقة لكنى شممت رائحة عفونة كأن الحجرة لم تُفتح منذ زمن طويل. كانت هناك لوحات كثيرة متناثرة فى كل مكان. أزاح أستاذى احدى اللوحات وأخرج من خلفها لوحة أخرى وضعها أمامى و قال:

- من أجل هذه اللوحة أحبك مثل ابنى.

كانت اللوحة لرجل، لا يشبهنى تمامًا لكن بها الكثير من تفاصيل ملامح وجهى. قال أستاذى:

- ابنتى «مى» رسمت هذه اللوحة منذ ثلاث سنوات.

شعرت بارتياح شديد، إنها تحلم بى مثلما أحلم بها. ثم قال أستاذى بصوت رخيم مفعم بالأسى:

- هل تعلم أين توجد «مى» الآن؟

ارتجفت هلعًا من نبرات صوته لكنى لم أقل شيئًا، نظرت إليه متسائلاً فأكمل:

- إنها ترقد تحت التراب منذ عامين.

الموهبة

يجلس على مقعده الصغير فى أحد الأركان. يقوم أحدهم بنفخ الكيس البلاستيكى ويفرقعه خلف رأسه. لا يصدر منه أية حركة ولا أى رد فعل فيضحكون ساخرين. لكنه يستنتج ما حدث من خلال حركاتهم المبتهجة التى تدب فجأة. من خلال حركة الأفواه استنتج أن أحدهم يصفه ساخرًا: فى شبابه كان موسيقارًا كبيرًا، موهبته الحقيقية فى أذنيه.

كانت موهبته بالفعل. فى العشرينيات من العمر كان مطاردًا من رجال المباحث فى كل مكان. لا يستطيع الإقامة فى مكان واحد فترة طويلة. هرب من مدينته «كفر الدوار» إلى «الإسكندرية». لكنه سرعان ما لاحظ النظرات المتشككة فى عيون المخبرين. مجموع الأحكام ضده فى قضايا سرقة ونصب يصل إلى أربعة عشر عامًا. ونتيجة لهروبه المتكرر تضاعفت المدة. نجح فى الفرار إلى «القاهرة». اشترى صندوق لتلميع الأحذية ليتوه فى الزحام الشديد فى مقاهى العاصمة. الأمان فى الزحام.

لكن المباحث كانت له بالمرصاد. لا يعرف كيف يتصلون ببعضهم البعض، يبدو أنه لا عمل لهم إلا هو فقط.

فـى القسـم، نظـر إليـه ضابـط المباحـث فـى دهشـة ثـم أمـر بوضعـه فـى الحجـز. بعـد عـدة أيـام طلبـه. كان فـى الحجـرة رجـل أنيـق مهيـب. شـعر كأنـه عاريًـا أمـام نظراتـه الثاقبـة الفاحصـة. قـال ضابـط المباحـث بفخـر: موهبتـه الحقيقيـة فـى أذنيـه، إنـه يسـتطيع التقـاط دبـة النملـة. قـال الرجـل المهيـب: نجربـه. ثـم أكمـل: سـتعيش فـى أمـان لـو نفـذت الأوامـر. كلمـة «الأمـان» لهـا تأثيـرًا سـحريًا فـى نفسـه، ابتسـم. ثـم حـدد لـه الرجـل المهيـب العمـل فـى عـدة مقاهـى ثـم يعـود إليهـم بالأحاديـث المتداولـة بـين النـاس.

نجـح فـى اسـتغلال موهبتـه و توقفـت مطـاردات الشـرطة. أصبـح لـه سـكن ثابـت عبـارة عـن حجـرة صغيـرة فـوق السـطح. لاحـظ اختفـاء بعـض رواد المقاهـى إلـى الأبـد و البعـض يعـود بعـد فتـرة متبـدل الأحـوال إلـى الأسـوأ أو إلـى الأفضـل. لكنـه يوقـف عقلـه عـن التفكيـر فـى مثـل هـذه الأمـور. الرجـل المهيـب نفـذ وعـده، أطاعـه وأصبـح الآن يعيـش فـى أمـان.

لكـن لـكل شـىء نهايـة. فـى العـام الماضـى أخبـروه أنـه فقـد موهبتـه مـع تقـدم السـن، ضعفـت موهبتـه بالتدريـج إلـى أن فقـد حاسـة السـمع تمامًـا. انبطـح أرضًـا يقبـل الأقـدام خوفًـا مـن العـودة إلـى ذل السـجن. لكـن الرجـل طمأنـه بـأن الملفـات القديمـة لـن تُفتـح تقديـرًا لطاعتـه.

أصبح يستنشق رائحة الورنيش و التراب فى المقاهى حتى ساعة متأخرة من الليل. حجرته تحولت إلى قبر مخيف، بلا زوجة ولا أولاد، بلا أصدقاء ولا جيران. يسمع أصوات غريبة وحركات مريبة فيرتجف. لكنه فى الفترة الأخيرة طمأن نفسه بأنها مجرد خيالات. لقد فقد السمع تمامًا، لا شك أنها أصوات داخلية.

لكن لا بد من العودة بعد أن هده التعب. فى الطريق اشتم الرائحة الكثيفة للكباب و الكفتة. لم يتذوق هذه الأشياء طوال حياته. لا يوجد فى جيبه إلا جنيهات قليلة. اشترى سندوتشات الطعمية من المطعم المجاور للحاتى. و هو يعبر الطريق لم يسمع النفير المزعج الملح للسيارة المسرعة. طار فى الهواء قبل أن يرتطم بالأسفلت. تحشرج و تلوى ثم استرخى هامدًا بينما عجينة الطعمية تخرج من فمه مختلطة بالدم.

●●●

«سكر»

ما أن وصلت «دنيا» بصحبة خطيبها إلى أول الشارع الذى به بيتها حتى جرى نحوها «سكر» يقفز فى مرح وسعادة. ثم هب واقفًا على قائمتيه الخلفيتين محاولاً احتضانها.

ضحكت «دنيا» ثم أخرجت قطعة «البون بون» من حقيبتها. إلتهمها الكلب «سكر» فى سعادة وهو يهز ذيله فى امتنان. ثم راح يسير أمامها و هو ينبح بصوت أجش كأنه يتهدد ويتوعد كل من يحاول الاقتراب منها، وربما يعلن للجميع خبر عودتها. «دنيا» بالنسبة له كل شىء. يجب أن يعلم الجميع موعد خروجها ونبأ عودتها.

صعدت «دنيا» بصحبة خطيبها درجات السلم الخمس و«سكر» يصعد أمامها ليفسح لها الطريق. بعد أن دخلا الشقة عاد «سكر» ليجلس أسفل شرفة حجرة «دنيا». يعلم جيدًا أن هذه هى حدوده و لا يجب أن يتخطاها أبدًا.

بدأت العلاقة بين «دنيا» و «سكر» منذ بضعة أشهر، عندما كان جريحًا من أثر معركة مع كلب آخر. أشفقت عليه. وضعت أمامه الطعام و الشراب. بعد أن شبع سار خلفها. حاولت إقناع والديها بالاحتفاظ بهذا الكلب الودود المسكين فى البيت لرعايته.

لكن الوالدان رفضا بشدة. أدرك «سكر» على الفور بذكائه الفطرى أن حدوده تنتهى هنا.

فى خلال بضعة أيام تماثل «سكر» للشفاء، استعاد بعض وزنه. أصبح لا يبتعد كثيرًا عن شرفتها. أصبحت «دنيا» تضع له الطعام و المياه كل يوم و هى تداعبه قائلة: أنت حلو مثل السكر. يبدو أنه هو الذى اختار أن يكون هذا اسمه. كلما قالت كلمة «سكر» ينظر إليها ثم يتشمم ثيابها و قدميها معترفًا لها بالجميل والفضل.

فى يوم زواجها، شعر «سكر» بالضجة و الصخب فى البيت. سمع الزغاريد. أدرك بحسه المرهف أن هناك حدثًا سعيدًا يخص «دنيا». فراح يجرى و يقفز فى الشارع و هو ينبح كأنما يريد أن يشعر العالم كله بسعادته بسبب سعادة «دنيا».

خرجت «دنيا» من باب العمارة ترتدى الثوب الأبيض محاطة بالأهل و الأصدقاء. نظر إليها فى دهشة ثم راح يهز ذيله طربًا. لم يحاول الاقتراب منها، كأنما خشى على الثوب الأبيض من الاتساخ. ركبت «دنيا» السيارة و راح «سكر» يجري خلفها وهو ينبح فى فرح. اختفت السيارة فى نهاية الشارع وعاد «سكر» وحده يجلس أسفل الشرفة منتظرًا عودتها.

عندما عاد الوالدان بعد الحفل إستقبلهما «سكر» فى ذهول. راح يبحث عن «دنيا» خلفهما دون جدوى. جرى فى الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات بحثًا عنها دون جدوى. فى النهاية، عاد حزينًا ليجلس أسفل الشرفة.

فى اليوم التالى وضع الأب الطعام والمياه أمام «سكر». لكنه رفض الطعام. إنه يعلم جيدًا أن هذا الرجل هو الذى منعه من دخول الشقة فكيف يأكل منه. ترك الطعام و ذهب يقف حائرًا على أول الشارع. هنا اختفت «دنيا». أين ذهبت؟ لو كان يعلم أنها لن تعود لمنعها من الرحيل.

طال انتظار «سكر». لم يفقد الأمل. الأب يضع له الطعام دون أن يأكل. فى خلال أسبوع اضمحل حجمه إلى النصف، جحظت عيناه، أصبح لا ينبح من شدة الوهن. بالرغم من ذلك يجول فى كل شوارع المنطقة بحثًا عن «دنيا» دون جدوى. ثم يعود ليجلس أسفل الشرفة على أمل عودتها.

بعد أسبوع خرج الأب من منزله ليجد «سكر» جثة هامدة. هامت روحه فى العالم الفسيح بحثًا عن «دنيا».

●●●

الطيـار

خرج زوجها إلى عمله بعد آذان الفجر بقليل. تقلبت «سعدية» فى الفراش بين النوم و اليقظة، عندما اكتشفت أنه يجب عليها مواجهة معاناة كل يوم هبت جالسة، انتبهت، فتحت عينيها عن آخرهما وقد تجعدت ملامح وجهها رغم أنها مازالت فى ريعان الشباب.

بعد أن غسلت وجهها بسرعة وقفت برهة أمام حجرة ولديها. الضوء الخافت ينساب من النافذة الصغيرة على الحجرة الضيقة. الولدان يغطان فى نوم عميق. الأصغر بجوار الحائط أسفل النافذة يلف ذراعه الصغيرة حول رقبة أخيه الأكبر الذى ينام من ناحية الخارج. تأملت ساق ابنها البكر المكسورة فشعرت بوغزة فى قلبها. الآن يراودها الشك فى أنها السبب فى كسر ساقه. لكنها لم تفعل شىء غير عادى، فعلت مثلما تفعل كل الأمهات.

كانت ترسله لشراء الخبز كل صباح، هكذا تفعل كل الأمهات، هكذا كانت أمها تفعل معها. فى الأونة الأخيرة، بدأ الولد يعود إليها بالخبز ممزق الثياب وهو يخبرها بالمشاجرة التى حدثت. تنهال عليه فى اللوم والعتاب. لا يتشاجر إلا المجرمون. يجب احترام الكبير ومساعدة الصغير. هكذا علمتها أمها. فيصمت

الصغير مطأطئ الرأس. ثم يعود إليها صباح اليوم التالى حاملاً الخبز والدم ينزف من يديه. تضربه، تلومه وهى تصرخ:

- لا أحب أن يكون ابنى مجرمًا. رغم الفقر لا يوجد أحد فى عائلتنا منحرفًا. لن أسمح لك بذلك أبدًا.

ثم تجلس تبكى بمفردها فى حجرتها وهى تبتلع القلق بداخلها. تفعل مع ولديها كل ما يجب أن تفعله الأم من أجل مستقبل وراحة أولادها. لا تسمح له بالتغيب عن المدرسة أبدًا مهما كانت الأسباب. تجاهد لكى تصنع منهما رجلين محترمين لهما مكان فى هذا المجتمع. تساعدهما فى الدراسة رغم تعليمها المتواضع، عندما تواجهها صعوبات الدراسة لا تيأس أبدًا بل تجاهد و تحاول فى صبر وجلد من أجل تحقيق الحلم. ترى فى أحلامها كل منهما قد صار رجلاً ناضجًا له بيت خاص به وزوجة جميلة وفية تعاونه، ترى كل منهما رجلاً مسؤولاً قادرًا على مواجهة الحياة بجدية و حزم.

وأخيرًا عاد إليها حاملاً الخبز وهو يصرخ ويتلوى . جرت به إلى المستشفى الخيرى القريب. هناك اكتشفت أن ساقه قد كُسرت. قام الأطباء بعمل اللازم بتكاليف زهيدة، صاحب المستشفى رجل صالح يتعاون مع الفقراء برحمة وإنسانية لا حدود لهما.

حدث هذا منذ أسبوعين تقريبًا. الولد الصغير لا يتعدى عمره الخمسة أعوام . هكذا أصبح عليها شراء الخبز بنفسها. لم تستطع الحصول على خبزها. الطوابير كثيرة وطويلة، تمتد لعدة أمتار كثيرة. أمام بوابة المخبز يتزاحمون، يتشاجرون، يتصارعون بالأيدى و الأقدام. علمت أنها أتت متأخرة جدًا. البعض يأتى بعد صلاة الفجر مباشرة لكى يحصل على خبزه. فى هذه اللحظة أدركت مدى معاناة ابنها. كيف يستطيع ابنها البكر الذى لا يتعدى عمره التسعة أعوام مواجهة هذا البحر المتلاطم؟ إقشعر بدنها عندما استشعرت قسوتها عليه.

فى اليوم التالى خرجت قبل موعد عمل المخبز بساعتين. عندما لمحت المخبز من بعيد شعرت بالارتياح، يبدو أنها ستكون الأولى فى الطابور فتحصل على خبزها بمجرد بدء العمل. لكن ما أن اقتربت حتى رأت الناس يفترشون مداخل البيوت، أخبرها كل منهم بدوره، اكتشفت أنها السابعة عشر. جلست فى مدخل أحد البيوت مذهولة.

ماذا حدث ؟... منذ عشرين عامًا، عندما كانت أمها ترسلها لشراء الخبز كان للمخبز عينان، ينتج أنواع كثيرة من الخبز، الزبون هو الذى يحدد نوع الخبز الذى يريده و درجة تسويته. إذا لم يرق لها أى من هذه الأنواع تذهب إلى المتجر الذى فى

نهاية الشارع. هذا المتجر متخصص فى بيع جميع أنواع الخبز وبأحجام مختلفة.

بدأ العمل فى المخبز فى السابعة صباحًا. اصطفت الطوابير الطويلة لكن بوابة المخبز مازالت مغلقة. أتت عربة والتفت حول المخبز و بعد برهة استدارت عائدة محملة بالخبز الفاخر. حمدت «سعدية» ربها ثم استدارت إلى جارتها قائلة:

- يبدو أن الخبز اليوم جيدًا.

سألت جارتها فى ضيق:

- إذا كان الخبز قد نضج فلماذا لا يبيعونه؟

رد رجلاً كان واقفًا فى طابور الرجال:

- صاحب المخبز يذهب بهذا الخبز الفاخر إلى الأسواق الراقية ليبيعه بعشرة أضعاف الثمن.

شهقت «سعدية» ثم قالت:

- هل تقصد أن الخبز الذى سنحصل عليه يختلف؟

أجاب الرجل وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة من سذاجتها:

- طبعًا.

بعد أن اعتصرها الزحام، استطاعت الحصول على خبزها فى العاشرة صباحًا. خبزًا لا لون له ولا رائحة. بالرغم من ذلك جرت إلى البيت سعيدة بالكنز الثمين. أعدت طبق الفول بسرعة ووضعته أمام ولديها. عندما اكتشفت عدم وجود البيض أو الجبن لإرتفاع أسعار هذه الأشياء ضحكت فى ألم. تذكرت حديث والدها منذ عشرين عامًا. كان والدها يلعن الظروف و الأيام، يشكو من صعوبة الحياة بسبب الحرب. الحرب تسبب الغلاء وتجعل كل شىء نادرًا، لم يكن يقصد الخبز طبعًا لأنه كان متوفرًا. فى هذا الوقت كان قد مر على الحرب الأخيرة عشرة سنوات تقريبًا. كانت تسمع الكبار يقولون أن الأحوال ستتحسن بالتدريج. الآن مضى على الحرب أكثر من ثلاثين عامًا. الآن أصبح المخبز آليًا. أين الخبز؟ أصبح فى ندرة الألماس. عليها مواصلة نفس المعاناة كل يوم للحصول على خبزها.

سمعت أزيز الطائرة يأتى من المطارالقريب. فجأة، استيقظ ابنها الصغير، قفز بخفة يفتح النافذة و راح يرقب الطائرة فى استمتاع وهى تقلع. ثم التفت إليها قائلاً:

- عندما أكبر أريد أن أكون طيارًا.

ضحكت رغمًا عنها و ذهبت لتبديل ثيابها. المطار شىء مزعج لكن هذا هو المسكن الوحيد المتاح لضيق ذات اليد. الجميع هنا يتأفف من أزيز الطائرات، لا يسعد بذلك سوى ابنها الصغير.

عندما أصبحت على وشك الخروج رأت ابنها الصغير بجوارها. يريد الخروج معها. نهرته، الزحام شديد، الصراع مرير. لكن الصغير أصر على الخروج معها. فحذرته ألا يبتعد عنها أبدًا.

قبضت على يده بقوة وذهبا يسيران معًا فى الأزقة والطرقات، يقفزان على البرك و المستنقعات إلى أن وصلا إلى الطريق السريع حيث يوجد المخبز. السيارات تمر مسرعة لا تلوى على شىء. لا شك أن أصحاب السيارات من الأثرياء والمسؤولين لا يعلمون أن هناك أناس تعيش هنا. البيوت هنا لا تتكون إلا من طابق واحد أو طابقين، الكثير منها يختفى وراء النباتات البرية التى نمت فى التربة الطينية، كانت الأرض زراعية فى البداية ثم تحولت إلى بيوت عشوائية على أطراف المدينة. لا شك أن هؤلاء الأثرياء يعيشون فى عالم آخر يختلف تمامًا.

بعد الإنتظار لمدة ساعتين بدأ العمل واصطفت الطوابير الطويلة. ما أن فُتحت أبواب المخبز حتى هجم الجميع فى صراع وقتال من أجل الخبز الثمين.

كاد الصغير أن يُعتصر فى الزحام، وحوش عمالقة يحجبون عنه النور و الهواء. رائحة العرق كريهة بغيضة، الأقدام تتقاذفه فى وحشية، كاد أن يختنق، ترك جلباب أمه الذى كان يقبض عليه بقوة بيده الصغيرة وإنسل هاربًا من هذا الفخ الذى وقع فيه.

لم تشعر «سعدية» بذلك، كانت منهمكة بالصراع المرير من أجل الوصول إلى بوابة المخبز.

خرجت من هذا البحر المتلاطم بعد ساعة حاملة الخبز فى فرح و سعادة. التفتت تبحث عن ابنها فلم تجده. فى لهفتها، لم تلحظ الناس وهم يجرون حولها إلى الطريق السريع ليلتفوا حول أحد السيارات. سألت بعض المارة عن ابنها، إنهم جميعًا يعرفون بعضهم البعض جيدًا. لم يجبها أحد. سألت:

- هل من المعقول أن يكون قد عاد إلى البيت بمفرده؟

قالت جارتها:

- ربما.

جرت إلى البيت فى لهفة والناس يرقبونها فى ألم. البعض يمصمص شفتيه فى شفقة، البعض على وشك البكاء، لكن لم يجرؤ أى منهم على إخبارها بالحقيقة. مرت طائرة أثناء الطابور، مد الصغير يديه و راح يجرى مقلدًا الطائرة فدهسته السيارة.

●●●

القطة السوداء

شقيقته الكبرى تستعد لإتمام زواجها خلال شهر.. تنهمك فى دراسة كتب كثيرة عن برج الحوت الذى ينتمى إليه خطيبها وكتب أخرى كثيرة عن برج الدلو الذى تنتمى هى إليه...

تحاور كثيرًا معها.. الأجرام السماوية لا علاقة لها بمصائر البشر.. لكنها تؤكد أن الكثير مما فى هذه الكتب ينطبق على الواقع.. فى بعض الأحيان يتطور الحوار إلى شجار، دون جدوى.. لكنه اليوم لا يريد مناقشتها حتى لا يثير أعصابها قبل الزواج... ألقى نظرة على المرآة ليتأكد من حسن هندامه ثم خرج حائرًا وهو يتساءل فى نفسه: كيف تكون شقيقته طبيبة مثقفة واعية وتعتقد فى مثل هذه الخرافات؟!...

وصل إلى بائع الجرائد الذى فى نهاية الشارع. وقف برهة مرتبكًا.. يشعر أن هناك عيونًا ما ترقبه.. تلفت حول نفسه.. الناس يمرون حوله مشغولين بحالهم، لا أحد يرقبه أو يلتفت إليه، فراح يتجول بعينيه على عناوين الكتب. انقبض قلبه فى حسرة. نصف الكتب تقريبًا عن الأبراج وتأثيرها على حياة الإنسان والنصف الآخر عن الأغانى الحديثة السريعة، القليل من قصص

وروايات قديمة جدًا ولا يوجد رواية واحدة فقط تعبر عن أحلام جيله و آماله...

استنشق نفسًا عميقًا فى ألم وهو يقول فى نفسه: أمر طبيعى، كتب تجارية لا تهدف سوى الأرباح المادية، مكانى ليس هنا...

راح يكمل طريقه بحثًا عن حلمه.. إختار طريقًا هادئًا بعيدًا عن ضجيج الأسواق.. الضوضاء تقلقه، تجعل عقله يسبح فى أفكار كثيرة هُلامية.. الهدوء يعاونه على التركيز.. لابد من التركيز.. لابد من خطة دقيقة محكمة لتحقيق الأحلام الكبيرة...

شعر بنفس العيون المترقبة مرة أخرى.. لا أحد فى الطريق غيره.. هل يكون أحد الزملاء يحاول أن يلهيه عن حلمه بمكر وخبث... ربما...

بُهرت أنفاسه عندما وصل إلى المكتبة العامة... المكتبة التى كانت على وشك الانهيار منذ عامين أصبحت فى غاية الأناقة والفخامة. القاذورات التى كانت تحيطها من كل جانب تحولت إلى نخيل يعانق السماء فى كبرياء.. يبدو أن عميد الكلية كان محقًا فى اتهامهم بالضعف و التخاذل.. الأجيال السابقة كانت لا تعثر على الكتب والمراجع إلا بعد مشقة بالغة، وعندما يعثرون عليها يكون الجهل

بلغات الغرب عائقًا منيعًا، فيكلفهم ذلك المزيد من السهر والأرق. بالرغم من ذلك استطاعوا الوصول إلى أرفع المناصب العلمية. الآن ذُللت كل الصعاب.. بدأت ترجمة الكتب العلمية لينهل منها من يشاء.. ابتسم فى ارتياح عندما وصل إلى قسم الكتب المترجمة. الآلاف من الكتب على الأرفف. الأغلفة براقة زاهية الألوان تخطف الأبصار، تثير الخيال وتلهب العقل الوثاب..

التمعت عيناه ببريق خاطف و هو يرى نفسه عالمًا جليلاً فى الفيزياء مثل الدكتور «أحمد زويل» أو الدكتور «فاروق الباز»، يفتخر به الأصدقاء ويعتز به الأهل والأحباب.

راح يتجول بين الأرفف.. دقات خطواته تجلجل فى المكان.. الصمت غامضًا مريبًا.. العيون مازالت ترقبه كأن هناك روح شريرة تتربص به.. التفت حول نفسه. اصطدام بأحد الأرفف فسقط..

هب واقفًا بسرعة وهو يمسح الدماء المتساقطة من يده اليسرى.. أصلح هندامه ثم راح يكمل بحثه فى عناد.. قرأ العناوين والفهارس لمدة ساعات طويلة.. ضاق صدره ونفد صبره.. نصف الكتب تتحدث عن التاريخ المجيد الذى يحفظه عن ظهر قلب والنصف الآخر يتحدث عن الجنس، كل أنواع الشذوذ الجنسى فى مختلف المعتقدات الغريبة الغامضة ولا يوجد كتاب واحد فى الفيزياء..

شعر بشيء ما يتحرك خلفه.. التفت وراح يزيح الكتب بحرص شديد.. لا شيء.. شعر بالنظرات تأتيه من الخلف.. الأنفاس ساخنة حادة.. التفت فى ذعر.. قطة حالكة السواد، الجرب يصيب فرائها الناعم، تخترقه بنظراتها فى تحد وعناد.. اقشعر بدنه فى رجفات خفيفة، خفق قلبه بقوة وعنف.. حاول أن ينهرها ويخرجها من هذا المكان بيد أنها قفزت تهاجمه بوقاحة غريبة.. سقط على الأرض، قفزت القطة فوق رقبته وغرست أنيابها الحادة وراحت تمتص دمائه بشراهة...

●●●

الجرس

عندما يسمع صراخ ابنة جاره، التى لم يتعدى عمرها العشرة أعوام، من ألام الحقنة، يتسأل فى نفسه عن الجدوى من دراسة الطب.

عندما بدأ دراسة الطب منذ عشرين عامًا، كان يهدف إلى محاربة الألم، الطب ما هو إلا رحمة للبشرية. لكنه سرعان ما اكتشف أنه لا سبيل لمحاربة الألم تمامًا إلا المُخدر. والمُخدر يدمر خلايا المخ.

بمرور الأيام وبعد عدة تجارب فاشلة اكتشف استحالة تحقيق الحلم. لكنه اليوم، بعد أن شعر بمعاناة الصغيرة وخاصةً أن مرضها مزمن ويحتاج إلى العلاج لمدة عشرين عامًا وربما يستمر العلاج طوال حياتها، أصبح تعيسًا. العلاج قد يكون أشد ألمًا من المرض نفسه.

بالرغم من تعمقه فى دراسة الطب ومعرفته بالجسد البشرى إلا أنه يجهل الكيمياء وأسرار التركيبات الدوائية.

استعان بصديقه الصيدلى، استمر بحثهما فى محاربة الألم لمدة عام كامل، وفى النهاية نجحا فى الوصول إلى العقار المناسب.

قامـا بتجربـة العقـار الجديـد علـى عـدد كبيـر مـن حيوانـات التجـارب ثـم قامـا بتشـريح الحيوانـات وتأكـدا مـن عـدم وجـود أى أعـراض جانبيـة.

عندمـا حـان موعـد التجربـة علـى الإنسـان رفـض ضميـره إخضـاع أى إنسـان للتجربـة مهمـا كان، ولذلـك قـام بالتجربـة علـى نفسـه. تأكد الطبيبان أن الكبسـولة السـحرية تقضى على أى شـعور بالألـم تمامًـا لمدة عشـرة أيـام ودون أى أعـراض جانبيـة أو تأثيـر علـى خلايـا المـخ و الأعصـاب.

جـرى إلـى الصغيـرة يمنحهـا الكبسـولة السـحرية، وكانت سـعادته غامـرة عندمـا رآهـا تأخـذ الحقنـة دون أى ألام. كانـت المكافـأة التـى حصـل عليهـا هـى قبلـة وابتسـامة فـرح مـن الصغيـرة.

المكافـأة أكبـر وأهـم بكثيـر مـن جائـزة «نوبـل» التـى يحلـم بهـا صديقـه. المكافـأة أكبـر وأهـم مـن كل الأمـوال التـى يحلـم بهـا صديقه. لكـن بعـد سـتة أيـام اسـتيقظ مـن أحلامـه علـى الصـراخ والعويـل. جـرى نحـو شـقة جـاره ليجـد الصغيـرة جثـة هامـدة.

جحظـت عينـاه فـى رعـب، المفاجـأة أصابتـه بالشـلل لمـدة سـاعة. وعندمـا عـاد إليـه الوعـى أصـر علـى إجـراء الفحوصـات و التحاليـل الطبيـة. بعـد التصويـر بالأشـعة اكتشـف أن هنـاك مسـمارًا مـن

الحديد انغرس فى قدمها الصغيرة. زحف المسمار داخل الجسد الصغير عدة سنتيمترات وانتشر الصديد فى كل أجزاء الجسد حتى ماتت دون أن تشعر بالألم.

●●●

كيمياء

الأصدقاء يرقبونه فى حسد. خطيبته الجميلة تقفز فى كل مكان بثوبها الأحمر الأنيق الذى يبرز كل مفاتنها. تتابع أدق التفاصيل باهتمام شديد، لا يوجد على المائدة إلا الطعام والمشروبات التى يفضلها. الموسيقى المنبعثة فى الحديقة هى الموسيقى التى يحبها. طبعت صورته على شريحة ذهبية تعلقها فى صدرها لتؤكد حبها له أمام الجميع. تخشى أن تخطفه إحدى صديقاتها أو قريباتها، أنهن يتمايلن حوله فى دلال، يرقبنه بنظرات جائعة مثل النمور التى تنتظر اللحظة المناسبة للهجوم. بالرغم من ذلك لا يشعر بالسعادة.

بدأ رحلة البحث عن أليفته منذ اليوم الأول فى المراهقة وربما قبل ذلك. ليس مثل كل أترابه بل أكثر منهم نهمًا وجشعًا فى الحب. لا يوجد حياة إلا فى نبضات قلب المرأة المفعم بالحب. يحلم بالعون والصداقة والرفقة فى مشوار الحياة الطويل. لكن الفشل يلاحقه باصرار شديد. فى النهاية أدرك أنه ليس جذابًا أبدًا للنساء. سجن نفسه داخل قوقعته، الوحدة قاتل شرس لا يرحم.

اكتشف كيمياء الحب بالمصادفة. على الفور تحول الفشل إلى نجاح باهر. إلتف كل النساء حوله، يحاصرونه، يطاردونه، كل منهن تحاول جذب إنتباهه بطريقة مختلفة. إنها الفرصة المناسبة للإختيار. بالطبع اختار الأجمل والأذكى، و لماذا لا تكون الأغنى أيضًا؟

لكنه، اليوم، يشعر أن خطيبته الجميلة مجرد جسد فقط، ماكينة، يضغط على الزر فتدور الماكينة ويعرف جيدًا الزر الذى يوقفها. الذى يؤكد له ذلك أنها لا تشعر الآن بالقلق المعتمل فى قلبه. إنه لا يستطيع الحياة مع ماكينة. لا بد من مصارحتها. يشفق عليها من هذه المكاشفة. ستبكى بشدة، ستنهار، وهو لا يحب جرح المشاعر أبدًا. القلب قدس الأقداس ولا يجوز العبث به. لكن لا بد من المصارحة لكى يرتاح.

فى الغد، أخبرها أنه اكتشف كيمياء الحب. من خلال صديقه القبطان، من الخارج، استطاع الحصول على الفيرومون الذى يثير غرائز الأنثى. هذا هو سر حبها له. موقفها كان عكس المتوقع تمامًا. فى لحظة واحدة تحول الحب الجارف إلى احتقار وعاود الاكتئاب الحصار المحكم. عاد يتجول وحيدًا يشتم رائحة اليود وهو يسأل الموج عن كيمياء الحب.

●●●

مدينة الأشباح

عندما كنت فى العاشرة من العمر، لم أكن أهوى لعب الكرة مع الرفاق، بل كنت أهوى الصعود إلى سطح الدار لمراقبة الطيور المهاجرة... كنت أحلم بالهجرة معها لمعرفة ما يحدث وراء الصحراء الغامضة التى تحيط ببلدتنا من كل جانب...

فى ذات يوم، رأيت من فوق سطح الدار رجلاً عجوزًا يجرى فى الطرقات وهو يصيح محذرًا فى هلع: الأشباح قادمون... الأشباح قادمون...

جريت مع الناس نلتف حول العجوز الذى كان ممزق الثياب، حافى القدمين. العجوز يؤكد أنه سمع صلصلة جيوشهم فهوى الجميع يلصق أذنيه بالأرض. عندما تأكدوا من ذلك جرى بعض الرجال إلى سفوح الجبال القريبة ليسوقوا أغنامهم وإبلهم إلى الحظائر بينما جرت النساء إلى الديار تحصن أولادهن بتعويذات غريبة غامضة...

رغم تحذيرات أمى الرهيبة إلا أننى لم أشعر بالخوف. بل كنت سعيدًا لأننى سأتعرف على الأشباح عن كثب لأول مرة فى حياتى... الأشباح هاجمت بلدتنا منذ خمس أو ست سنوات

تقريبًا، ولا يوجد لدى ذكريات مهمة عما حدث.. يجب الآن أن أكون مترقبًا حذرًا...

راح الرجال يعملون طوال النهار بجد و نشاط فى رسم أشكال مخيفة غامضة على أبواب الديار. عندما هبط المساء اختفى الجميع خلف الأبواب... أصبح الصمتُ ثقيلاً مهيبًا لا يخترقه سوى نعيق البوم أو صراخ طفل رضيع لا حول له ولا قوة...

فى الصباح داهمنى الخوف عندما رأيت سحابة قاتمة تظلل البلدة، لكنى سرعان ما انتصرت على خوفى عندما رأيت الرجال والنساء يتجولون فى الطرقات. تأكدت أن التعويذات تحمينا، بينما الخطر، كل الخطر، فى الخروج إلى الصحراء...

طلبت منى أمى الذهاب إلى العطار لشراء البخور ولوازمه... على باب العطار كان الزحام شديدًا. الرجال يتصارعون، يتناحرون، يدهسون الصغار تحت أقدامهم، و صراخ الصغار يذوب و يتلاشى فى البحر المتلاطم... يبدو أن أحد الرجال اعترض على ارتفاع الأسعار، فصعد العطار فوق مقعد صغير وراح يصرخ وهو يمسح عرقه بكم جلبابه:

- لا نأتى بالبخور إلا من البلاد البعيدة ومخاطر الصحراء كثيرة، ماذا أفعل؟ أخسر؟!...

ضرب القوم الرجل المعترض و ألقوا به بعيدًا مجاملة للعطار ثم راحوا يلقون بالأموال تحت أقدام العطار وهم يتعجلونه...

حصلت على نصيبى من البخور بشق الأنفس. فى طريق العودة رأيت بعض الرجال يلتفون حول راعى غنم عجوز عائدًا من الصحراء. الراعى يؤكد لهم أنه رأى بالأمس النيران وهى تتطاير فى السماء فى أشكال عجيبة.

فى وسط هذا الزحام لمحت ابن خالى شاحب الوجه، وبما أنه يصغرنى بعامين فشعرت نحوه بالمسؤولية، سحبته من يده بعيدًا عن الزحام، شعرت بحرارة جسده المرتجف فقلت:

- أنت مريض، يجب أن ترتاح فى الدار يومين على الأقل.

قال ابن خالى وهو يضع يده على صدره:

- لا أطيق رائحة البخور.

فقلت بثقة:

- إنها الوسيلة الوحيدة لحمايتنا من الأشباح، ألم تسمع ما يقوله الراعى؟

عاونت ابن خالى فى العودة إلى داره. فى اليوم التالى، عندما ذهبت لأطمئن عليه كان يسعل بحدة، ازداد وجهه شحوبًا، زائغ

البصر و هو يتأمل ما حوله كأنه لا يرى شيئًا... عندما شعر بوجودى أمسك ذراعى بشدة وهو يقول فى رعب:

- رأيت الأشباح بالأمس.

حسدته فى نفسى لأنه أصبح يعلم أشياء لا أعلمها ثم سألته فى لهفة:

- متى؟ و كيف؟

أجاب وهو يقلب النظر فى الحجرة:

- بالأمس، بعد منتصف الليل، قلقت، شعرت بشىء ما يتحرك بالقرب منى، تقلبت فى الفراش فرأيت الشبح ممددًا بجوارى... فى فراشى!...

سألت برهبة خافق القلب:

- ما شكله؟

أجاب و حبات العرق تتساقط من وجهه بغزارة:

- بشع. أسود. عيناه الحمراوتان تشعان بريقًا مرعبًا. حاولت إبعاده بيدى فلم أستطع. حاولت الصراخ فضاع صوتى...

- هل أخبرت والدتك بذلك .

أجاب فى أسى:

- عندما أخبرتها أرسلت أخى الأكبر إلى العطار وراحت تشعل المزيد من البخور. البخور يخنقنى. أخشى الخروج من الدار وأخاف الجلوس فى الدار أيضًا. ماذا أفعل؟!...

ربت على يده برفق و أنا أقول:

- لا شىء. على كل حال، سمعت من والدتى أن الأشباح سترحل فى خلال أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر.

بيد أنه لم ينتظر لمدة أسبوع. مات عصر اليوم التالى. ولأن إكرام الميت دفنه خرجت البلدة لدفنه أثناء الليل. فى أثناء الدفن تطايرت النيران فى السماء وراحت الذئاب تعوى فى شراسة فجرى الجميع دون أن يتموا عملية الدفن...

فكت الأشباح حصار البلدة بعد ثلاثة أو أربعة أيام. عادت الحياة سيرتها الأولى. بعد أن هدأت مخاوفى رحت أسأل كل من أتوسم به العقل والحكمة عن سر مهاجمة الأشباح لبلدتنا. البعض يؤكد أنه غضب من الله يصيب البلدة لفساد خلق الناس وخراب ذممهم. العمدة لا يرحم أحدًا، أهل البلدة لا يتراحمون ولا يتعاونون بل يود كل منهم أن يأكل لحم أخيه ميتًا... بينما كانت هناك قلة قليلة تهمس فى خوف وهى تؤكد أن العمدة يفتعل هذه

المسرحية السخيفة لإثارة الفزع، يؤكدون على صحة رأيهم بأن العطار الوحيد فى البلدة هو أخو العمدة.

لم تعاود الأشباح هجومها إلا عندما أصبحت فى الصف الأول الثانوى.. فى هذه الأيام أصبحت علاقتى وثيقة بأستاذى «الماوردى». إنه رجل فاضل حكيم قليل الكلام، حاد الطباع فى قول الحق، لكنه كان لطيفًا معى أنا فقط. كثيرًا ما كان يهدينى بعض الكتب ثم يجلس معى يناقشنى ساعات طويلة برفق شديد...

لجأت إليه ألقى عليه تساؤلاتى الحائرة، بحت له بشكى فى العمدة و أخيه فضحك من أعماق قلبه ثم قال:

- أنا الآن على مشارف الستين و العمدة على مشارف الأربعين. مهاجمة الأشباح لبلدتنا تحدث قبل أن يولد العمدة. لقد سمعت الكثير من النوادر والحكايات عن الأشباح من الآباء والأجداد.

سقط فى يدى ثم سألت حائرًا:

- ومن أين تأتى هذه الأشباح؟!

ربت على كتفى برفق ثم قال:

- يا بنى، لقد ذُكر الجن فى كل الكتب السماوية رغم أن العلم لم يستطع إثبات ذلك.

ثم شرد ببصره بعيدًا و هو يكمل:

- إننا نعيش فى عالم غامض مبهم . كل ما لدينا من علوم ومعارف لا يمثل إلا أقل القليل.. ولذلك يؤكد بعض الفلاسفة عجز الإنسان عن معرفة الحقيقة الكاملة...

انصرفت من أمام أستاذى أكثر حيرة. رحت أتجول وأتأمل التعويذات المخيفة على الأبواب. كان الصمت مهيبًا، لاحظت اختفاء العصافير. لقد اختفت كل أنواع الطيور المهاجرة والمقيمة.. أين ذهبت الطيور؟! ..

فى الطريق مررت بجوار دار خالى، سمعت نواح زوجته، عندما دخلت إليه علمت أن خالى خرج إلى الصحراء بحثًا عن رجال العمدة الذين يثيرون الفزع.

خرج خالى إلى الصحراء بينما كانت الأشباح تتراقص فى نشوة وألسنة اللهب تتهاوى والذئاب تعوى فى ضراوة.. خرج و لم يعد.. بحثوا عنه - بعد أن فكت الأشباح حصارها - لمدة أسابيع وشهور طويلة ولم يعثروا على أى أثر له...

هاجرت من البلدة بعد عامين دون أن استطع الوصول إلى السر.. هاجرت مصحوبًا بدعوات و تشجيع أستاذى «الماوردى». هو الذى أصر على إتمام دراستى بالجامعة رغم أنها تبعد عن

بلدتنا بنحو ثمانمائة كيلو مترًا فى اتجاه الشمال. فى الجامعة، فتح لى الدكتور «فاضل» أبواب مكتبته الخاصة بعد أن لاحظ اجتهادى. فى هذه المكتبة رأيت خريطة علمية دقيقة للبلاد... لاحظت نقطة حمراء بالقرب من بلدتنا وبمراجعة مقياس الخريطة أدركت أن هذه النقطة الحمراء تبعد عن بلدتنا بنحو ثلاثمائة كيلو متر فى اتجاه الجنوب. سألت الدكتور «فاضل» عن هذه النقطة فقال: إنه بركان.

ضحكت من أعماقى حتى اغرورقت عيناى بالدموع ، النيران تأتى من البركان. الأشباح ما هى إلا دخان فى الهواء. صلصلة جيوشهم التى كنا نسمعها ماهى إلا غليان البركان... وعندما سألنى الدكتور «فاضل» عن سر ضحكى قلت:

لاشئ!... فقط، ليت قومى يعلمون...

●●●

العالم الفسيح

رغم أنه تزوج بعد قصة حب طويلة وعميقة إلا أن شهر العسل لم يستمر أكثر من عشرة أيام فقط. تحولت إلى مخلوق شرس عنيف، تلومه، تعاتبه، تسبه بأقذع السباب، تتهمه بالجبن والندالة والحقارة رغم أنها تعلم أنه يعتز كثيرًا برجولته وبطولته. كثيرًا ما كان يردد لها بفخر: لا يستطيع التعامل مع البحر إلا الرجال فقط وهو من القليلين الذين يخرجون للصيد من على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ.

لكى يهرب من كلماتها اللاذعة اندفع بكل قوة إلى الخمر. يشرب كثيرًا دون أن يأكل شيئًا حتى تتحول الأرض تحت أقدامه إلى ملمس الحرير ويدور الكون حوله فيسقط مغشيًا عليه.

حاول بعض الأهل والأصدقاء إجباره على الطعام لكنه ما أن يأكل شيء حتى يتقيأ كل ما بجوفه. فى النهاية وصل إلى المستشفى وأمر الطبيب بتعليق المحاليل حتى يستمر فى الحياة.

فى المستشفى أصبح كل ما حوله أبيض، لكن ليس أبيضًا فى ضياء الشمس، بل الأبيض الباهت الأقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

اليوم، بعد مضى خمسين يومًا على زواجه، شعر بباب غرفة العناية المُركزة يُفتح. رأى زوجته ومحبوبته. مازال يحبها بكل جوارحه رغمًا عنه. من خلال صفاء عينيها، الذى عاد الآن، أدرك أنها مازالت تحبه رغمًا عنها. قالت فى لوم خفيف:

- ألم أقل لك أننى أخشى البحر؟

أجاب بصوت خافت:

- نعم.

- وبالرغم من ذلك أصررت أن أخرج معك إلى البحر.

أدار رأسه إلى الناحية الأخرى. المشهد المُفزع مازال محفورًا فى عقله منذ أربعين يومًا... رآها وهى تسقط من المركب بعد أن أصابها دوار البحر. التيار يسحبها بسرعة مخيفة إلى العالم الفسيح بينما هول المفاجأة أصابه بالشلل...

شعر بيدها الحانية على وجنته لتدير رأسه ناحيتها، قالت فى ثقة:

- لا تقلق، ألم تقل لى، من قبل، أن الحب الحقيقى يصمد حتى فى مواجهة الموت.

انحنت تقبله فى حنان بالغ وشعر بجسده يتحول إلى جثة هامدة وروحه تسبح فى العالم الفسيح.

●●●

جمرات الورد

الملائكة تنهمك فى عملها بجد ونشاط. يصعدون إلى السماء حاملين الدعوات والاستغفارات. ثم يهبطون إلى الأرض حاملين الرحمات. بينما هناك ملائكة أخرى تحيط بالجبل من كل صوب، مبهورين الأنفاس من فرط السعادة. الجبل الذى كان صحراء جرداء منذ بضعة أيام اكتسى باللون الأبيض.

أتى المسلمون من كل أرجاء العالم يلبون الدعوة. جميعهم يرتدى الزى الأبيض البسيط. الغنى والفقير، الوزير والغفير، الصغير والكبير، الرجال والنساء. زى بسيط يعبر عن عن فطرة الله التى فطر الناس عليها.

الحُجاج يبكون فى ندم على ذنوبهم، يلبون ويكبرون. تكبيراتهم تخترق عنان السماء، تسرى فى الكون بأسره فترتجف الشياطين. فى نفس هذا التوقيت من كل عام يرتجف الشياطين. يشعرون بالتخاذل والهوان، ينتابهم اليأس والإحباط. كل ما فعلوه طوال العام يضيع هباءً. فى هذه الأيام المعدودات تضعف همتهم ويزول سلطانهم. خطواتهم السريعة الخفيفة تصبح ثقيلة بطيئة كأن هناك قيود خفية جبارة تكبلهم استعدادًا لانتقام المنتقم الجبار.

التفوا حول أبيهم الكبير «إبليس»، يرقبون فى قلق ما يحدث على جبل عرفات من خلال البلورة السحرية. قال أحدهم:

- إنهم أربعة ملايين هذا العام.

قال الثانى مذعورًا:

- كل هؤلاء سيرجموننا ابتداءً من الغد.

قال ثالث وهو على وشك البكاء:

- جمراتهم تخرق جسدى. أشعر بروحى تنسحب منى كأننى فى مرحلة وسط بين الحياة و الموت.

قال الرابع:

- بل الموت أرحم من هذا.

التفت الخامس إلى أبيه «إبليس» ثم قال فى حنق:

- لماذا وسوست إليهم؟ ألم تكن تعلم أنهم أنبياء؟

هب «إبليس» واقفًا ثم قال فى ثورة:

- لم أكن أعلم أن اللّٰه سيأمرهم برجمنا.

قال أحد أبنائه متبجحًا:

- أنت السبب إذن. أنت الذى وضعتنا فى هذا الموقف المُهين.

راح «إبليس» يرقب الآنية الفخمة التى يعد بها سمومه. الوساوس والأفكار الخبيثة تغلى وتفور، بالرغم من ذلك فهو عاجزًا عن فعل أى شىء مع هؤلاء المؤمنين.

ثم التفت إلى أبنائه وهو يقول:

- كفاكم هذا. دموعهم تسرى فى جسدى مثل الصعقات الكهربائية.

قال أحد الأبناء ثائرًا:

- الغريب فى الأمر أن الله يسامحهم ويتقبل استغفارهم رغم كل آثامهم.

التفت «إبليس» يرقب ما يحدث على جبل عرفات ثم قال:

- يا ولدى إنه الرحمن الرحيم.

قال الابن الثائر:

- ألن ننتهى من هذا العذاب؟

برقت عينا «إبليس» بوميض خاطف ثم قال:

- لا تقلقوا. هذا العام سيكون أفضل الأعوام.

قال ذلك ثم اتجه إلى الآنية التى يعد بها سمومه، اغترف منها قطرات قليلة وراح يرشها على جبل عرفات. ضحك أحد الأبناء ساخرًا:

- وساوسك لن تجدى مع هؤلاء المؤمنين.

وضحك «إبليس» قائلاً فى هدوء:

- صبرًا يا ولدى. ثمرة وحيدة تالفة تسبب التلف فى كل الثمار.

●●●

كان بين الحُجاج سلطان كبير ذو شأن عظيم، حوله حاشية ضخمة من الحراس و الحجاب، تظله مظلة ناصعة البياض يحملها أربعة رجال فى غاية الضخامة بينما بقية الحاشية يتلفتون حول أنفسهم يرقبون الحُجاج بنظرات متجهمة شرسة، يدفعون كل من يحاول الاقتراب فى غلظة.

بعد الانتهاء من صلاتى الظهر والعصر جلس السلطان يرتشف العصير المثلج. تقدم نحوه كبير الحراس، انحنى فى أدب وقال:

- سموك ستوكل من فى رمى الجمرات؟

أجاب السلطان مندهشًا:

- لماذا أوكل أحدًا؟ أنا فى كامل صحتى.

ارتجف كبير الحراس ثم قال فى تردد:

- مولاى، الحُجاج كثيرون، هناك مخاطر شديدة من وجودك بينهم.

قال أحد الحاشية:

- من الممكن أن يكون هناك بعض المعارضين. سموك تعلم مدى حقدهم. إنهم يثيرون الغضب فى نفوس الناس بكلام براق.

قال السلطان فى حسم:

- لست أقل إيمانًا من هؤلاء البسطاء. ما فائدة السلطة إذا لم أستمتع بحجتى؟

انحنى كبير الحراس قائلاً فى خضوع:

- تحت أمر سموك.

فى هذه اللحظة انسحبت بعض الملائكة من حول الجبل، اتجهوا إلى منطقة المزدلفة. فرشوا الطريق بالرحمات تمهيدًا لمرور المؤمنين. عندما وصلوا إلى المزدلفة راحوا يحلقون فى المكان سعداء. بكى بعضهم من فرط النشوة لأن ربهم كرمهم وشرفهم للقيام بهذا العمل الجليل. ثم راحوا يمسحون المنطقة كلها بأجنحتهم، بقدرة القادر تحولت كل حجرة، كل حصوة، كل ذرة رمل، لتكون بردًا وسلامًا فى أيدى المؤمنين وجمرات تلسع وتحرق الشياطين.

بعد أن مالت الشمس نحو المغيب والانتهاء من صلاة المغرب بدأ الجميع فى الإتجاه إلى المزدلفة. يتمتمون بالأدعية وقرأة القرآن والبعض الآخر يبكى ويلبى وآخرون يستعيذون من الشيطان الرجيم.

رغم الزحام الشديد على الممر الخاص بالمشاة والطريق الخاص بالسيارات إلا أن جميعهم فى غاية السعادة والنشوة. بسبب الرحمات التى فرشها الملائكة فى الطريق شعر الحُجاج أن الطريق تحتهم أملس ناعم فيسرى فى جسدهم خدر لذيذ مفعم بالإيمان والتقوى.

الوحيد الذى ضاق بالزحام هو السلطان. شعر بالطريق طويلاً وعرًا رغم أنه يختبئ داخل سيارة مجهزة بكل وسائل الراحة والرفاهية، محاط بموكب ضخم من الحراسة.

فى المزدلفة، راح المؤمنون يجمعون الحصوات. من المفروض جمع ثلاثة وستين حصوة إلا أن جميعهم يجمع أكثر من هذا العدد تحسبًا إذا ضاعت بعض الحصوات فى الطريق. وانهمكت حاشية السلطان فى جمع الحصوات ثم غسلوها جيدًا ووضعوها فى حقيبة جلدية فاخرة، إنها جمرات السلطان، ثم عطروها حتى يسعد سموه برمى الجمرات. لم ينتبه أى منهم أن ما فعلوه فى الحصوات أبطل المفعول الغامض الذى فعلته الملائكة.

مع بزوغ فجر أول أيام العيد انطلق المؤمنون لرمى الجمرات. ارتجفت الشياطين عندما رأوهم متجهين نحوهم. حتى أبيهم «إبليس» ارتجف رغم ثقته من أن وسوسته أتت بمفعولها فى نفس السلطان و حاشيته.

انهمرت الجمرات تحرق الأبالسة الذين كانوا يصرخون. حاولوا الهرب لكن الأغلال كانت ثقيلة محكمة، سلاسل ربانية ولا سبيل للفكاك منها.

قرر السلطان الانطلاق لرمى الجمرات فى العاشرة صباحًا بعد تناول الافطار مع فنجان القهوة المعتاد.

من التاسعة صباحًا، انطلقت الحاشية بين الجموع، راحوا يدفعون بالمسلمين يمينًا ويسارًا ليفسحوا الطريق للسلطان. سقط المسلمون، داسوا على بعضهم البعض. اختفت الصرخات بين الزحام و الضجيج. مات كثيرين تحت الأقدام ولقوا ربهم بنفس راضية فى الأراضى المقدسة.

ضحك «إبليس» عندما رأى المسلمين يدوسون بعضهم البعض، قهقه عندما رأى السلطان يتقدم حاملاً الجمرات المعطرة. صرخ فى ذريته يحثهم للوقوف أمام حصوات السلطان، من تصيبه حصوة واحدة من حصوات السلطان سيفوز فوزًا عظيمًا.

تحولت حصوات السلطان إلى ورود سحرية، رحيقها بلسم شافى من كل الجروح التى أحدثها المؤمنون...

●●●

فوق السحاب

فى الطائرة، أثناء رحلتى الأخيرة إلى «دبى»، لفت نظرى من يجلس بجوارى. يرقب ما يحدث بنظرات غريبة لا أفهمها، ربما نظرات ميتة، ربما نظرات متوجسة قلقة. لا أعرف. ظننت أنه الخوف من ركوب الطائرات، خاصةً أنه لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر، على أحسن تقدير. حاولت طمأنته لكنه صدمنى بإجابته الصارمة الحازمة بأنه يركب الطائرات مرتين كل عام.

حاولت معرفة سبب هذا القلق فراح يشكو لى كراهيته للحياة. يكره الحياة فى «مصر» مع زوج أمه. يكره الحياة فى «دبى» مع زوجة أبيه. جدته التى كان يعيش معها توفيت منذ عامين.

أثناء الرحلة حاولت مداعبته لتخفيف آلامه من خلال الأفلام التى تُعرض على الشاشة أو من خلال متابعة السحب الرائعة تحت الطائرة. لكنه يجيبنى بجدية وصرامة لا تتناسب أبدًا مع صغر سنه.

عند هبوط الطائرة لاحظت أنه لم يربط الحزام. كان مغمض العينين مبتسمًا كأنه يحلم. ربطت له الحزام ثم ربت على ساقيه مشجعًا .

بعد أن استقرت العجلات على الأرض وبدأ الناس يستعدون للنزول فى تعجل لاحظت أنه لا يتعجل النزول مثل كل المسافرين.

حاولت إيقاظه وأنا أربت عليه برفق ثم اكتشفت أن روحه تسللت من بين السحاب وذهبت لخالقها.

●●●

الجمل

أغلق الدكتور «عماد» الباب الحديدى بعد أن فرغ من فحص الحيوانات المريضة. ارتجف لدوى الحديد مشفقًا على الحيوانات الحبيسة. لكن على كل حال إنها سُنة الكون.. لقد سخر الله ما بين السموات والأرض لخدمة الإنسان والإنسان لايشبع أبدًا...

وقف برهة مترددًا. يجب أن يتجه الآن يسارًا إلى حظائر الأغنام، بيد أن هناك مغناطيسًا قويًا يجذبه إلى جهة اليمين. كان هذا المغناطيس هو الجمل القابع فى حظيرته فى نهاية أرض المركز.. حظيرة الجمل محاطة بسور خشبى بلا سقف فتبدو رأسه من بعيد شامخة متكبرة...

التفت د. عماد حول نفسه ليتأكد من عدم وجود أحد يرقبه ثم استدار يمينًا على المدق الترابى الضيق متجهًا إلى الجمل.. عندما اقترب توقف فى حذر.. ظل الجمل على الأرض مهولاً.. الظلال تنذر بحدوث كارثة. لا أحد يصدق أبدًا.. حجم الجمل وصل إلى الضعف.. كيف هذا؟!... دفعه الفضول إلى اقتحام الحظيرة. اندهش عندما اكتشف أن كل أوانى الطعام والشراب خاوية، لقد أصبح هذا الجمل شرهًا بطريقة غير طبيعية فى

الفترة الأخيرة بعد أن كان ممتنعًا عن الطعام لمدة شهر كامل... ترى ما هو المصير المجهول الذى ينتظر هذا الجمل؟!...

أغلق الحظيرة بحرص شديد ثم راح يتجول فى أرض المركز جولته اليومية. يرقب الحيوانات و هى تتناول طعامها فى هدوء بينما حيوانات أخري تستلقى مستمتعة بأشعة الشمس. ما أسعد هذه الحيوانات، لا لأنها تجد المأوى و الغذاء لكن لأنها تعيش بلا عقل.. لا شىء يقلق الإنسان و يثير مخاوفه إلا العقل.. أو ربما نصف العقل. لأنه من المؤكد أن العقل الكامل يبعث فى النفس الهدوء والسكينة...

أنهى جولته أمام شجرة الكازورينا الضخمة التى تتوسط بوابة المركز و مكتب المدير. جلس تحت ظلها يرتشف الشاى فى هدوء بينما كانت نسمات الخريف ترتع بين فروع الشجرة فتتساقط الأوراق الجافة المتهالكة. قال فى نفسه: الحياة تمضى وأنت تقف فى مكانك، محلك سر. ما الذى حققته بعد عشر سنوات؟.. لا شىء.. لا شىء على الاطلاق سوى إضاعة الوقت فى عمل بسيط متواضع يستطيع أى حارس جاهل القيام به...

استلم عمله فى هذا المركز منذ عشر سنوات. فى هذا اليوم سخر منه الأصدقاء و الزملاء. المرتبات فى مركز الأبحاث ضئيلة. حاول أحدهم أن يلحقه فى العمل معه فى أحد المزارع

الخاصة لتربية الأبقار. أمراض الأبقار بسيطة ومعروفة للجميع والمرتب معقول. لكنه رفض بشدة، فأتى إلى هنا يحلم بأبحاث وتجارب كثيرة تخلد اسمه وترفع من شأنه وشأن بلده...

استقبله مدير المركز بملابس فى غاية الأناقة و وجه بشوش لا تفارقه الابتسامة. يخلع نظارته الشمسية من حين لأخر بيده اليسرى ثم يعيدها فوق أرنبة أنفه. لا أحد يعلم إن كان يتفاخر بالنظارة الثمينة أو بالساعة الذهبية الفاخرة التى تتلألأ تحت أشعة الشمس. نصف كلامه أو أكثر باللغة الإنجليزية رغم أنه لا يجيد نطقها. فى اليوم الأول خيّره المدير بين المبيت هنا فى المركز أو العودة إلى المدينة يوميًا.

كانت الحجرة المخصصة له مبنية من الخشب. حجرة صغيرة ضيقة. لا يوجد بها إلا فراش صغير و صوان حديدى ضاع لونه تحت تأثير الصداء. لكنه بالرغم من ذلك اختار المبيت هنا توفيرًا للوقت و المجهود ليتمكن من متابعة العمل بدقة. الضاحية التى بها المركز تبعد عن مدينته أكثر من خمسين كيلومترًا.

فى هذا اليوم قام بجولته الأولى فى المركز. ابتسم فى نشوة عندما رأى مبنى ضخم مكتوب على بابه «المعمل». داعبته الأحلام عندما رأى المبنى المجاور مكتوب على بابه «المكتبة». فى ساعة العصر أتى بأوراقه وجلس تحت هذه الشجرة. كان الجو صيفًا،

الأوراق خضراء كثيفه، هواء الصحراء الجاف ينعش الصدور تحت هذه الشجرة، فأطلق عليها شجرة الأحلام. دون ملاحظات كثيرة فى أوراقه إلى أن هبط الظلام وبدأ الناموس هجومه العنيف. لملم أوراقه وفر هاربًا إلى حجرته وهو يقول فى نفسه: كله يهون من أجل سطر واحد فى بحر العلم...

انتظر مدير المركز فى اليوم التالى ليقدم له مقترحاته بيد أن المدير لم يأت إلا بعد أسبوع كامل. فجمع أوراقه وذهب إليه. إندهش عندما دخل مكتب المدير. الأرض مفروشة بسجاد مخملى، المكتب مرصع بالأصداف النفيسة، الهواء باردًا منتعشًا من أثر المُكيف بينما الحرارة بالخارج لا تُطاق. قدم أوراقه إلى المدير بيد مرتعشة. قرأها المدير سريعًا ثم سأل:

- ما هذا؟

أجاب بصوت منخفض:

- أكثر من تركيبة للأعلاف، أريد تجربتها حتى أصل إلى تركيبة صحيحة تغنينا عن استيراد مركزات الأعلاف من الخارج.

قال المدير مندهشًا كأنه يتحدث إلى شخص أبله:

- ومن قال لك أننا لا نريد استيراد مركزات الأعلاف؟

أجاب مترددًا:

- الجميع يشكو من ارتفاع أسعارها.

ضرب المدير المكتب بيده وهو يقول مبتسمًا:

- وإجراء هذه التجارب مكلف أكثر من الاستيراد.

استجمع شجاعته ثم قال:

- إنى أقترح مكونات محلية زهيدة الثمن.

طوى المدير الأوراق و أعادها له ثم قال بحزم:

- مهمتنا تنحسر فى رعاية الحيوانات التى لدينا فقط ولا شىء غير ذلك.

فى هذا اليوم ألقى د. عماد بأوراقه فى سلة المهملات. فى هذا اليوم قرر العودة إلى مدينته كل يوم ليقضى الأمسيات فى المقهى مع صديقه الوحيد «بسام»، بيد أن «بسام» لا يجلس معه الآن فترات طويلة مثلما كان من قبل لأنه يستعد لمناقشة رسالة الماجيستير فى الاقتصاد والعلوم السياسية. قص لصديقه عما حدث مع مدير المركز لعل هذا يرفع من صدره بعض الثقل الذى يشعر به، برقت عينا «بسام» و هو يقول:

- يا صديقى، لا يأس مع الحياة.

- ماذا تقصد؟

- اجرى تجاربك فى السر. عندما تصل إلى نتيجة سيكون المدير فخوراً بك.

دب الحماس فى نفس د.عماد، بدأ يعد تركيبات خاصة ويقدمها للأبقار والأغنام، يفحص الحيوانات بحرص شديد، يرقب الأوزان يومًا وراء يوم. يبدل التركيبة و يعقد المقارنات... لاحظ كبير العمال ما يحدث، وشى به إلى المدير الذى استدعاه على الفور، لامه بعنف أمام كل العمال، سخر منه و من عمله قائلاً:

- مازال أمامك مشوار طويل قبل أن يكون لك رأى. أمامك المكتبة، حاول الإطلاع على ما هو جديد.

اندهش الدكتور «عماد» ثم إستجمع شجاعته قائلاً:

- لايوجد فى المكتبة أكثر من عشرة كتب و الفئران أكلتها.

تطاير الغضب من عينىّ المدير وهو يقول:

- أنت وقح، وإن عاودت تجاربك سأحولك إلى التحقيق.

عاود اليأس هجومه البغيض مرة أخرى. بدأت الأحلام الكبيرة تتلاشى رويدًا رويدًا إلى أن اختفت تمامًا. بذل مجهودًا

كبيرًا ليقنع نفسه بأنه ليس إلا مجرد موظف بسيط فى الدولة لا يهتم بشىء أكثر من الراتب الذى يحصل عليه أول كل شهر ولكى يستمر هذا الراتب لابد من رضى المدير.

فى العام الماضى استقدمت وزارة البحث العلمى البروفوسير «جورج» ... شعر العمال برهبة من طوله الفارع و صدره العريض. لحيته الصفراء مهذبة بعناية، النشاط واضحًا فى بشرته المشربة بالحمرة.. تجول البروفوسير فى المركز مبتسمًا، فحص الحيوانات الهزيلة و فى عينيه بريق التحدى. ينفث دخان غليونه الكثيف فيسعل المدير بحدة. فى أثناء الغذاء راح العمال يتنافسون فى إعداد وليمة فاخرة ترحيبًا بالبروفوسير.

بعد أسبوع أعلن البروفسير رأيه من خلال تقرير مختصر من ثلاث صفحات. السلالات المحلية لا تتناسب مع مركزات الأعلاف. لابد من استقدام سلالات جديدة تنمو أسرع وتدر لبنًا أكثر.. كاد الدكتور «عماد» أن ينفجر فى الضحك بينما قال المدير بثقة و هدوء:

- افعل ما تراه مناسبًا.

فى ذات يوم بينما كان البروفسير يهم بالانصراف برفقة المدير مر أمامهما أحد أسراب الجمال. أمر البروفوسير السائق

بالتوقف، هبط من السيارة و راح يرقب الجمال مندهشًا. راعه ضخامة حجم الحيوان ثم التفت إلى المدير متسائلاً فى ذهول:

- كيف يكون عندكم حيوان بهذا الحجم وتدعون ندرة اللحوم و نقص الجلود.

التفت المدير إلى الدكتور «عماد» الذى كان يقف بجوار السيارة لوداعهما ثم قال:

- هل تعلمت الآن كيف يفكر العلماء؟

أمر البروفسير و فى عينيه بريق التحدى:

- أريد جملاً.

فى صباح اليوم التالى كان الجمل فى المركز. دخل البروفسير مخزن الأعلاف بمفرده. لقد حرم على الجميع الاقتراب من هذا المخزن منذ اليوم الأول. خرج بعد قليل يحمل آنية الطعام ليضعها أمام الجمل وراح يشير له بالأكل منها. بيد أن الجمل لوى عنقه بعيدًا بعد أن لعقها ثم راح يجتر ما فى جوفه. أمر البروفسير بحبس الجمل منفردًا ثم قال فى ثقة:

- عندما يعضه الجوع ويأكل من هذا العلف سيتضاعف حجمه فى خلال أسابيع قليلة ويعم الخير على الجميع.

راح العمال ينفذون الأوامر بدقة طمعًا فى الخير الوفير بينما انهمك البروفسير فى متابعة الجمل كل صباح و مساء. يربت عليه فى حنان بالغ، يُدلِل. ثم يدون ملاحظاته فى الحاسب الألى الصغير الذى لا يفارقه.

انبهر الدكتور «عماد» بهذا الجهازالصغير فى الحجم الضخم فى الإمكانيات. لكن ما فائدة الحاسب الآلى إذا كان الجمل لا يأكل. إنه لايطيق رائحة الطعام، حاول الهرب أكثر من مرة بيد أن قبضة البروفسير كانت محكمة، لا أحد يستطيع الفكاك منها أبدًا... هزل الجمل، برزت عظامه واختفى بريق الصحة و العافية من عينيه...

بدأ العمال يتشككون فى قدرات البروفسير، يتهامسون: الجمل عنيد، لن يأكل أبدًا إلا ما يروق له. ربما يرفض الطعام اعتراضًا على الحبس. الجمل يعشق الحرية. كبرياء الجمل لا يتوافق أبدًا مع غرور البروفسير...

وصلت همساتهم إلى آذان البروفسير فاستشاط غضبًا، فى النهاية ربط حبلاً سميكًا حول رقبة الجمل وراح يضربه بعصا غليظة وهو يحثه على الطعام. لكن دون جدوى.

وجم العمال وهم يرون ذلك. استشعر الدكتور «عماد» بالخطر فذهب إلى البروفسير قبل أن ينصرف و حذره قائلاً:

- لا يجب أن تلتقى مع الجمل بمفردك بعد اليوم.

سأل البروفسير فى استعلاء:

- لماذا؟

- لا تغتر بصبره وجلده، لا تستهن بصمته و هدوئه. إنه لا ينسى أبدًا من يخدش كبرياءه.

التمعت عينا البروفسير ببريق خاطف ثم قال:

- غدًا سيأكل الجمل رغم أنفه.

ابتسم الدكتور «عماد» فى سخرية. بيد أن الجمل بدأ يتناول الطعام فى اليوم التالى. فرح الجميع، هللوا مستبشرين مترقبين فى صبر نافد الخير الوفير الذى وعدهم به البروفسير.. اعترف الجميع بعبقريته وهم يتساءلون فى دهشة عما حدث.. لاحظ بعضهم أن البروفسير يضع له الماء أولاً، وبعد أن يرتوى ينهمك فى الطعام بشراهة غريبة.. تضاعف حجمه خلال شهر واحد.. استسلم لحياة الأسر، اختفى بريق عينيه ليحل محله حمرة الغضب.. لم ينتبه أحد الى أن البروفسير كان يضيف بعض الخمور إلى الماء..

وفى ذات يوم، فى ساعة العصر، عندما كان البروفسير داخل سيارته يستعد للانصراف، حطم الجمل حظيرته، اتجه إلى سيارة

البروفسير مباشرة. قلبها فى ثورة... قفز البروفسير يجرى والجمل يجرى خلفه إلى أن حطم رأسه بين أسنانه فى غل، حطم الجثة بقدميه، ثم راح يجرى فى الصحراء مسعورًا شرسًا...

الذعر انتاب الجميع. قدم الدكتور «عماد» استقالته محتجًا ووافق المدير على الفور.

عاد إلى مدينته تائهًا زائغ البصر. الشوارع مظلمة موحشة.. لا يعرف أين داره حيث توجد زوجته و ولديه.. يبدو أنها مدينة أخرى غير مدينته.. جلس فى حديقة عامة محاولاً تركيز أفكاره، داهمه صوت يغنى أغنية «عبد الحليم «:

- خللى السلاح صاحى.. صاحى..

يعرف هذا الصوت جيدًا لكنه لم يستطيع أن يحدده. اتجه إلى مصدر الصوت فرأى صديقه «بسام» يعب من زجاجة خمر بنهم شديد. اندهش وهو يسأل:

- معقول، «بسام»!

ابتسم «بسام» وهو يقول:

- دكتور «بسام» من فضلك، لقد حصلت على الدكتوراه فى الاقتصاد و العلوم السياسية.

- لماذا إذن تفعل ذلك؟

أجاب «بسام» و هو يقدم زجاجة الخمر لصديقه:

ـ لأننى اكتشفت أخيرًا أنه إذا كان العلم نور، فالجهل راحة..

وراح الصديقان يدوران حول الشجرة وهما ينشدان: خللى السلاح صاحى.. صاحى..

●●●

انتظار

ذهب أبناؤها يلهون بالكرة مع أصدقائهم، و جلست «فاطمة» تتناول الشاى بمفردها فى الشرفة. الدار مقامة على أطراف مدينة «عمان» العريقة. الصحراء مترامية الأطراف. القطار يمر من بعيد لا يأبه لأحد. خلف قضبان السكة الحديد تمتد مزارع الزيتون والنخيل. النخيل يتمايل، يترنح كأنه يبكى و ينتحب وهو يودع الشمس إلى مثواها الأخير...

رأت سيارة زوجها «مروان» تقترب، يبدو أن هناك ضيفًا برفقته. استنشقت نفسًا عميقًا فى استسلام ثم اتجهت إلى المطبخ لإعداد العشاء. سمعت زوجها وهو يرحب بضيفه. بعد قليل رأته بجوارها فى المطبخ و على شفتيه ابتسامة مضطربة، سألته عن السبب، فأجاب:

- ضيفنا تاجر من منطقة «السلط».

تحجرت «فاطمة» فى مكانها دون أية حركة، لمعت عيناها ببريق الذهول ثم سألت بصوت متهدج:

- ماذا تقصد؟

- الرجل يقول أن لديه أخبار عن «مريم».

انتفضت كل عروقها وهى تقول فى عناد:

- سنسافر الآن.

حاول «مروان» أن يبدو متماسكًا وهو يربت على كتف زوجته ويقول:

- سنسافر مع آذان الفجر.

ألقت «فاطمة» الأطباق التى كانت على المنضدة وهى تصرخ فى جنون:

- سنسافرالآن.

اقتحم الضيف المطبخ و هو يسأل عما حدث فراحت «فاطمة» تضرب المنضدة بكل ما أوتيت من قوة و هى تصرخ باكية:

- سنسافر الآن.. الآن..

فى الطريق كان الظلام موحشًا والضباب مرعبًا. استندت «فاطمة» برأسها على نافذة السيارة، ارتجفت رجفات خفيفة سريعة مع الطريق ثم أغمضت عينيها فى استسلام.

لقد عبرت هذا الطريق من قبل لكن فى الاتجاه المعاكس. حدث ذلك منذ ست سنوات تقريبًا، حدث ذلك فى عام ١٩٦٧، عندما هاجم الجيش الإسرائيلى مدينة «القدس». فى هذه الأيام راح «مروان» يلملم كل ما خف وزنه و غلا ثمنه ثم فروا هاربين فى اتجاه الأردن. فى منطقة وادى الكرامة التقوا كتيبة عسكرية تابعة للجيش الأردنى. كانت الكتيبة فى طريقها إلى منطقة «السلط». وافق القائد على انضمامهم للكتيبة لحمايتهم من مخاطر الصحراء والهجوم الإسرائيلى الكثيف. عاون الأب الطفلين على الصعود إلى أحد العربات بينما حمل أحد الضباط الطفلة الرضيعة «مريم» حتى تتمكن «فاطمة» من الصعود إلى العربة المرتفعة. فى أثناء ذلك عاودت المروحيات الإسرائيلية هجومها. اشتعلت النيران فى كل مكان، زُلزلت الأرض تحت الأقدام. جرى الجميع، كل منهم يختبئ فى مكان مختلف. عندما ذهبت المروحيات خرجوا من مخابئهم. لم يكن هناك سوى «مروان» و الطفلان و «فاطمة». راحوا يفتشون عن «مريم» بين العربات العسكرية المشتعلة. الجثث تتناثر فى كل مكان، الأرض تتشرب الدماء، رائحة النابالم تزكم الأنوف... اختفت «مريم» والضابط الذى كان يحملها. فتشوا فى كل الكهوف والجحور ثم صرخت «فاطمة» بكل قوتها تنادى: «مريم»... «مريم»... فراح صوتها يجلجل فى الصحراء دون مجيب...

ذهبوا إلى مدينة «السلط». حاول الأب البحث فى السجلات العسكرية عن أسماء الضباط الذين كانوا فى الكتيبة. اتصل بهم جميعًا دون جدوى... فى النهاية قال أحد القادة:

- لو كنتم تقصدون الكتيبة «٧٦ مدرعات»، للأسف، لم يعد منها أحد.

عندما سمعت «فاطمة» ذلك سقطت مغشيًا عليها. طالت فترة الغيبوبة إلى أن استدعوا الطبيب الذى أمر بحجزها فى غرفة مظلمة بمفردها. حذر زوجها من أى صوت أو ضوء. ارتفاع ضغط الدم الشديد المفاجىء الذى حدث قد يصيب خلايا المخ بالتلف. لا بد من الالتزام بالهدوء والحذر الشديد...

لولا الولدان لاستسلمت «فاطمة» للمرض حتى الموت. لم تقاوم وتجاهد إلا من أجلهما.. استعادت عافيتها فى خلال بضعة أسابيع ورحلوا جميعًا إلى مدينة «عمان».

عندما استأجر «مروان» هذه الدار على أطراف المدينة، أعدت «فاطمة» حجرة خاصة لـ «مريم» وهى تقول لزوجها: لا بد ستعود فى يوم من الأيام. يجب أن يكون لها حجرة منفصلة عن حجرة الغلامين... فراح يربت عليها برفق موافقًا و إن كان فى داخله قد استسلم تمامًا للأمر الواقع و بدأ يعاود نشاطه التجارى مرة أخرى...

اليوم، التقى مصادفة هذا التاجر. قص عليه قصة «مريم» لمجرد الثرثرة فقط، فإذا بالتاجر يخبره بأن هناك طفلة فى السادسة من العمر الآن، أتى بها أحد الضباط من «السلط» و قد قامت إحدى نساء البلدة بحضانتها و رعايتها...

انتفضت عروق «مروان» فى عصبية، انفجر بركان الأمل من جديد. من يدرى؟!... ربما تكون الكتيبة التى التقوها تختلف عن الكتيبة «٧٦مدرعات»... وهم الجميع بالرحيل فى قلق...

وصلوا إلى البلدة بعد منتصف الليل، راحوا يجوسون فى الظلام كأنهم أرواح هائمة شقية تبحث عن ضالتها، بينما راحت «فاطمة» تقفز فى نشوة، تتعثر فى الظلام، تضم جلبابها وهى تضحك فى جنون، ثم تقول فى تهدج:

- كنت أشعر بها دائمًا على قيد الحياة.. أسمعها أثناء الليل وهى تنادينى.. قلب الأم لا يكذب أبدًا... أبدًا...

اقتحموا الدار فى غبش الظلام. اعتصرت «فاطمة» الطفلة الهزيلة التى أشارت إليها ربة المنزل... إختلطت دموع الابنة بدموع الأم. بكى الجميع فى فرح، زغردت صاحبة الدار وإن كان قلبها يخفق بشدة لمرارة الفراق بينما راح «مروان» ينتزع الطفلة فى عصبية من أحضان «فاطمة» الملتاعة، فحص قدمها اليسرى ثم صرخ فى جنون:

- هل جننت ؟.. إعقلى.

سألت صاحبة الدار فى قلق:

- ماذا تقصد؟

أجاب «مروان» والعرق يتفصد منه بغزارة:

- إنها مثل ابنتى، وليست ابنتى.

سأل التاجر فى ذهول:

- كيف عرفت ذلك بمثل هذه السرعة؟

ألقى «مروان» بكل ثقله على المقعد فى استسلام ثم قال:

- فى الطريق كنا نقضى الليل فى الكهوف. فى أحد هذه الكهوف التهم الفأر إصبع قدم «مريم» اليسرى.. وقدم هذه الفتاة سليمة..

عادت «فاطمة» إلى «عمان» وهى تمسك برأسها. طنين غريب يصم أذنيها. طلقات نارية تخترق رأسها. انفجار البارود مصحوبًا بالموسيقى الصاخبة ثم ضحكات ماجنة ساخرة.

منذ هذا اليوم، أصرت على المبيت بمفردها فى حجرة «مريم». وافق الزوج على مضض. بعد يومين حاول مداعبتها فنهرته قائلة:

- «مريم» التحقت بالمدرسة.

تحجر فى مكانه و هو ينظر إليها متشككًا فقالت مؤكدة:

- رأيتها بالأمس تجلس فى حجرتها تخط بيدها الصغيرة كلمات بسيطة فى خط متعرج. تهز رأسها من حين لآخر سعيدة بضفيرتها الطويلة. تحك رأسها بيدها وهى ممسكة بالقلم محاولة التركيز فى دروسها فيخط القلم على وجهها دون أن تشعر بذلك، فأخذت بيدها لأعينها على الكتابة...

احتقن وجه «مروان» بدماء الغضب، ثم قال ثائرًا:

- يجب أن تعلمى أن «مريم» ماتت. يجب الاهتمام بطفلينا لأنهما المستقبل.

اتهمته «فاطمة» بالأنانية والجشع، يبحث عن المال فى كل مكان ويهمل البحث عن ابنته...

خرج «مروان» من الدار غاضبًا. أصبح لا يأتى إلا نادرًا... علمت من الجيران أنه تزوج بأخرى. اشترى لها دارًا أخرى قريبة من هنا، يقضى معها أوقاتًا سعيدة وحياة هانئة وادعة بعيدًا عن الأوهام والأحزان...

لم تحاول استعادة زوجها. لم تعاتبه أو تناقشه... أصبحت تخدم طفليها طوال النهار بجد وإخلاص كأنها جارية تنفذ أوامر

أسيادها دون نقاش. تخرج إلى السوق لشراء لوازم البيت دون أن تبدل ثيابها. تترك شعرها مهوشًا.. تتشاجر أحيانًا مع البائعين لأتفه الأسباب. أحيانًا أخرى تصمت لمدة أسبوع كامل... تمر الأيام و هى تفقد أنوثتها و كل إحساس بالحياة...

فى ذات يوم، استيقظت من نومها فى قمة السعادة. راحت تغنى وترقص وهى ترتدى ملابس جديدة. مشطت شعرها بدقة، وضعت بعض مساحيق التجميل ثم انطلقت توزع أكواب الشربات على الجيران وهى تجيب كل من يسألها عن السبب بصوت متهدج مرح:

- «مريم» التحقت اليوم بكلية الهندسة.

مصمصت الجارات شفاههن فى شفقة فراحت تؤكد لهن:

- «مريم» نفسها هى التى أخبرتنى بذلك. كافحت المسكينة كثيرًا لكى تكون مهندسة تبنى و تعمر كل مكان...

منذ هذا اليوم، بدأ الشعور بالارتياح يجتاح نفسها. ربما يكون هذا الارتياح ناتجًا عن ثقة المؤمن بربه... أو الاستسلام لقضائه... لا أحد يعرف... أصبحت تخدم ولديها بنفس راضية، تتعامل مع الجيران والبائعين برصانة.. عندما ينقضى النهار تخلد إلى النوم فى هدوء وهى تؤكد لنفسها أن المروحيات الإسرائيلية لم ولن تقضى على حياة «مريم».

لكن، دائمًا لكن... فترات السعادة لا تدوم كثيرًا. كبر الولدان. رحل الابن الأكبر إلى «دمشق» لتنمية تجارة والده. بعد عدة أشهر رحل الابن الأصغر إلى «القاهرة» بحثًا عن أسواق جديدة... بقيت «فاطمة» وحدها فى الدار الكبيرة...

راحت تتجول بين حجرات الدار بمفردها. دقات حذائها تتردد عالية فيرتجف القلب برهبة. فى أثناء الليل يسمعها الجيران وهى تصرخ وتنتحب، تنادى أولادها الثلاثة دون مجيب...

شعرت بشبح الموت يحوم حولها فقررت الرحيل إلى «دمشق» لقضاء بضعة أيام مع ابنها ثم إلى «القاهرة» لقضاء أيام أخرى مع ابنها الأصغر... لا يوجد ما هو أبشع من أن يموت الانسان وحيدًا دون أن يشعر به أحد.

لملمت بعض حاجياتها القليلة وانطلقت إلى الحافلة الذاهبة إلى «دمشق». فى الطريق وقفت الحافلة فى منطقة «الرمان» للاستراحة. كان الناس يهرولون إلى المسجد لأداء صلاة العشاء فانطلقت معهم. بعد الصلاة مددت جسدها المثقل بحثًا عن بعض الراحة.

شعرت بعصا تنغرس فى جنبها. هبت جالسة لترى أمامها شيخًا عجوزًا يرتدى جلبابًا أبيض، له لحية بيضاء كثيفة، عيناه تلتمعان ببريق الثقة و الإيمان. قال الشيخ مبتسمًا فى هدوء:

- يجب أن نغلق المسجد الآن. المبيت هنا ممنوع.

خرجت من المسجد تتلفت حول نفسها فى جزع. رحلت الحافلة... ماذا تفعل؟... ليس معها نقود أو أى أوراق تثبت شخصيتها.. لا تعرف أحد هنا... لاحظ الشيخ ارتباكها. علم بحكايتها فربت على كتفها برفق قائلاً:

- سأحضر لك العشاء الآن. فى الصباح سأدفع لك مصاريف الرحلة من أموال الزكاة الموجودة فى المسجد.

بكت و هى تقول:

- ليس لدى أى رغبة فى الطعام.

- ماذا تريدين إذن؟

إنفجرت فى البكاء مثل طفل صغير ثم قالت فى تهدج:

- أريد رؤية أولادى. أريد الاطمئنان على «مريم» ورضيعها قبل أن أموت.

ثم راحت تقص عليه قصة «مريم» وصدرها يعلو ويهبط فى تشنجات عنيفة... ثم أكملت:

- أشعر بها قريبة منى. أعلم أنها أصبحت مهندسة وأنها تزوجت وأنجبت.. لا أعرف أين هى؟

جحظت عينا الشيخ فى ذهول ثم قال بصوت متحشرج:

- أصبحت مهندسة بالفعل، تعيش هنا مع زوجها وابنها الرضيع. ابنتك هى التى شيدت هذا المسجد بعد أن درست الهندسة المعمارية... أنا الذى ربيتها بعد مقتل الضابط الذى كانت معه ومازلت أحتفظ بالملابس التى كانت ترتديها حتى الآن.

برقت عيناها فى هلع، تشنجت كل عضلات وجهها. هبت تسجد شكرًا لله ثم التفتت إليه تقبل يده وهى ترجوه أن يقودها إلى «مريم» الآن...

أخذت «فاطمة» ابنتها فى أحضانها بعد فراق طال أكثر من ربع قرن... بكى الجميع فى فرح و شجن وألم... بعد أن هدأت ضجة اللقاء حاولت «مريم» إطعام أمها بيدها لعل هذا يخفف عنها بعض الحرمان بيد أن «فاطمة» رفضت بشدة وهى تقول:

- لا أرغب إلا فى النوم بهدوء وحفيدى فى حضنى.

جرت «مريم» تعد فراشًا وثيرًا فى عجالة. فى الصباح ، أيقظوا «فاطمة» فلم تستيقظ .

فاضت روحها إلى ربها الكريم بينما كان الحفيد يلهو بجوارها فى الفراش...

●●●

كتب للمؤلف

- ❖ أفلاطون فى عصر الفضاء.
- ❖ زهرة الصحراء.
- ❖ القرصان.
- ❖ ١٢ قصة مهاجرة.
- ❖ أفكار متناقضة.
- ❖ الحلم.
- ❖ «كليوباترا»، أميرة الحب و الحرب.
- ❖ الطاعون.
- ❖ قرطاج.
- ❖ أساطير الهنود الحمر.
- ❖ أساطير الإغريق.
- ❖ «إسكندر»، عبقرى السيف و الفكر.
- ❖ «يوليوس قيصر»، العسكرى و السياسى.
- ❖ التسامح.

❖ مقدمة فى الفينومينولوجيا.

❖ حضارات أمريكا القديمة.

❖ حكايات البحر.

❖ تفسير الأحلام.

❖ قبل الإعدام.

❖ أكلة لحوم البشر.

●●●

الفهرس	الصفحة

العودة:..... ٥

الأخطبوط:..... ٩

أم «فارس» :..... ١٥

المهندس:..... ١٩

المياه العكرة:..... ٢٩

إنتقام:..... ٣٥

«حم – إيونو»:..... ٤١

الجثة ترتج:..... ٤٧

آدم و حواء:..... ٥٣

شوكولاتة:..... ٥٩

الكرة الزجاجية:..... ٦٣

مذكرات «فيروس»:..... ٧٣

الصورة:..... ٨١

الموهبة:..... ٨٧

«سكر»:..... ٩١
الطيـار:..... ٩٥
القطة السوداء:..... ١٠٣
الجرس:..... ١٠٧
كيمياء:..... ١١١
مدينة الأشباح:..... ١١٣
العالم الفسيح:..... ١٢١
جمرات الورد:..... ١٢٣
فوق السحاب:..... ١٣١
الجمل:..... ١٣٣
انتظار:..... ١٤٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر